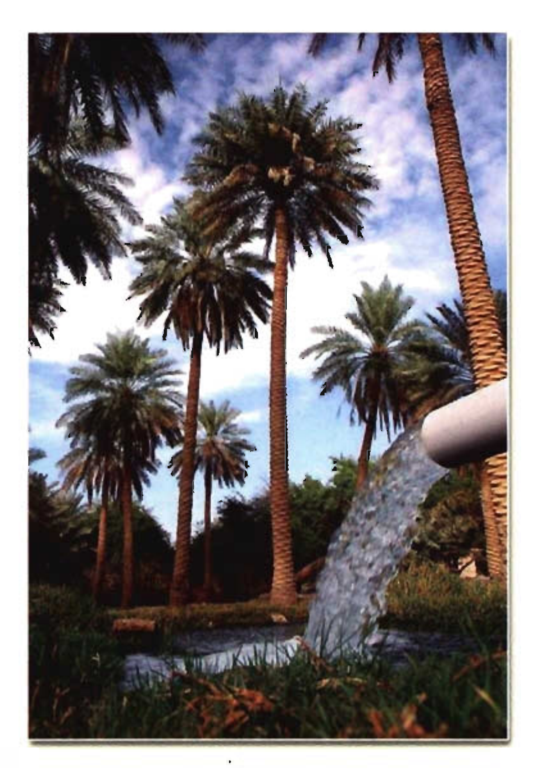
الشيعة في السعودية.. تاريخ وهوية

بول. هارسون
Paul W. Harrison

مجتمع الواحات في القطيف والأحساء

إعداد وتقديم: د. حمزة الحسن



Shia in Saudi Arabia.. History & Identity

مجتمع الواحات في القطيف والأحساء[1]

بقلم بول. هارسون

إعداد وتقديم: د. حمزة الحسن

دار المرتضى

بيروت - لبنان

(1) Paul W. Harrison, The Arab at Home, (USA 1924).

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع
بيروت لبنان، ص.ب ٢٥/١٥٥ الغبيري
تلفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
مكتبة: ٠٠٩٦١١٢٧٩٥٥٧
خليوي: ٠٠٩٦١٧٠٩٥٠٤١٢
E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - publishing - Distributing
Lebanon - Beirut
PO Box: 155/25 Ghobiery
Tel-Fax: 009611840392
Mobile: 0096170950412
E-mail:mortada14@hotmail.com
Printed In Lebanon

يُطلب هذا الكتاب وبقية منشورات
الدار من مكتبة القائم
العراق - بغداد - الكاظمية المقدسة - باب المراد
تلفون: ٠٠٩٦٤٧٩٠١٩٩٢٧٢٠

الطبعة الجديدة
1432 هجريـة
2011 ميلادية


بسم الله الرحمن الرحیم

تقديم

قليلة هي الكتب والأبحاث التي نشرت عن شرق الجزيرة العربية، وبالأخص المنطقة الشرقية من المملكة السعودية.

في الكويت، كما عمان والبحرين وقطر والإمارات، هناك الكثير من الكتب والوثائق المطبوعة والمنشورة التي تتحدث عن تاريخ وتراث تلك الدول وشعوبها. ومعظم ما نُشر جاء بمبادرة من الدولة ومؤسساتها، أو بمبادرات فردية لقيت تشجيعاً من الدولة نفسها.

غرض نشر التراث التاريخي واضح: إنه تعزيز الهوية الوطنية في تلك الدول. أي الإتكاء على التاريخ كمكوّن أساس في المادة الثقافية للهوية الوطنية.

الدولة السعودية ترى أن تاريخ وتراث المناطق التي تتشكل منها الدولة أمراً خطراً على بنيان الدولة نفسها.

والحجّة الحكومية تقول بأن ذلك التراث يقع في مجمله ضمن (الإرث الخصامي) الذي كان سائداً ما قبل قيام الدولة السعودية قبل نحو قرن.

لكن هذه الحجّة غير صادقة وغير صحيحة.

فالحكم السعودي لا يسعى في الأساس الى تعزيز هويّة وطنية جامعة للسكان. على العكس هو يرى أنها تمثل خطراً عليه نظراً لما تجلبه من مفاهيم سياسية أخرى تؤدي الى تغيير بنيوي في هيكل السلطة مثل المساواة، والمواطنة، والمشاركة الحقة في صناعة القرار. إن قيام هوية وطنية يعني بصريح العبارة (تحصيصاً) للسلطة بين المناطق، وتوزيعاً عادلاً للثروة، على عكس ما هو قائم من احتكار أقلية فئوية لكامل السلطة ومعظم المنفعة.

ثم إن الحكم السعودي سعى ـ بدلاً من قيام هوية وطنية صحيحة قائمة على تراث ثقافي مشترك، مع احتفاظ المناطق ببعض خصوصياتها الثقافية ـ الى تسويد ثقافة وتراث أقلوي، دينياً وسياسياً. هو يريد تذويب أكثرية السكان في ثقافة الأقلية الطائفية والمناطقية التي ينتمي اليها نظام الحكم، لتصبح الهوية (النجدية) هي (الهوية الوطنية).

الحكم السعودي يريد أن يربّي الأجيال الجديدة على أن تاريخهم يبدأ بآل سعود وينتهي بهم. ولذا فهو لا يسمح بوجود تراث او ثقافة سابقة على الحكم السعودي نفسه. إنها ثقافة تذكر المواطنين بماضيهم واستقلالهم وكرامتهم المهدورة.

لا غرو ـ إذن ـ أن يتعرض تراث المناطق المادي الى التدمير في كل المناطق. ولا عجب أن يمنع نشر كل ما يمت الى ذلك التاريخ حتى ولو كان تاريخ ما قبل الإسلام. وليست المسألة متعلقة هنا بتراث خصامي ماض، بقدر ما هو مسعى حكومياً يصنف ضمن عنوان (المذبحة الثقافية) تعرضت له كل المناطق غير النجدية.

من هنا تكتسب كتب التراث والتاريخ أهميتها في بلد مثل السعودية، فهي تعزّز الهوية، وتشدّ الناس الى الأرض التي ينتمون اليها، وتشحذ هممهم وتطلعاتهم نحو غد أفضل. كما أنها تعتبر سلاحاً شعبياً مقابل محاولات الصهر والتذويب في بوتقة الهوية الأقلوية التي تريد السلطة فرضها.

هذا الكتاب يحاول أن يوصل هذه الرسالة بالتحديد.

د. حمزة الحسن

مقدمة

إذا كانت منطقة الخليج العربي قد استقطبت منذ فجر التاريخ اهتمام الإمبراطوريات الطامعة في ثروات الشرق، فاعتبرتها درّة اقتصادية يجب الإستحواذ عليها، وحلقة من حلقات الإتصال تيسّر لتلك الإمبراطوريات توسيع سيطرتها على ثروات آسيا.. فإن ذلك الإهتمام لم يتعدّ هذه النواحي الإستراتيجية، ليغوص في أعماق المجتمع الخليجي، ويقدّم بحوثاً ودراسات بشأنه، كما هو الحال بالنسبة للدراسات السياسية والإقتصادية والإستراتيجية. ويمكن القول أن المجتمع الخليجي بشكل عام، لم يحظَ بدراسة ركينة رصينة تتعدّى السطح وتغوص في أعماقه. دراسة تتعدّى تاريخه القديم والقريب، الى ثقافته وعاداته وبيئته، وقيمه، ومراكز القوى الإجتماعية فيه، ومؤثرات المحيط على ذلك كلّه.

من النادر رؤية كتابات غربية قديمة تتعرّض للنواحي الإجتماعية بشكل عام في منطقة الخليج.. فالسياسيون (المعتمدون السياسيون والمقيمون البريطانيون السابقون) كانوا مشغولين عن هذا اللون من البحث الى قضايا أخرى يرون أنها أكثر أهمية، كالصراع مع

العثمانيين، وإقصاء المنافسين، وإدامة حكم الحلفاء الشيوخ من عدن الى بغداد.

ربما كان المبشّرون في الخليج، أكثر اهتماماً بالموضوع الاجتماعي، وذلك يعود الى طبيعة نشاطهم وأغراضهم. فتحويل فرد ما الى ديانة أخرى، لا توفره السيطرة السياسية وحدها، إذ مهما كانت طبيعة تلك السيطرة فهي غير قادرة على تغيير أعماق الإنسان الخليجي، هذا إذا افترضنا أن هدف الإستعمار البريطاني في الخليج كان يحمل أبعاداً تبشيرية، وهو من وجهة نظرنا لم يكن كذلك. بل كان هدفه استراتيجي سياسي واقتصادي. أما المبشرون الذي استظلّوا بالمظلّة السياسية البريطانية مثل الإرسالية الأميركية في البحرين وفي بعض مناطق الخليج الأخرى، فإنهم وجدوا أنفسهم في تضادّ مع ثقافة المجتمع وعاداته ومتبنياته الأيديولوجية، وبالتالي كانت ملاحظاتهم لهذا الموضوع أكثر تركيزاً وأكثر أهمية.

بين يدينا كتاب للمبشر الأميركي الطبيب بول هارسون: العربي في دياره، وهو كتاب ركّز فيه تجربته (الإنسانية) وهي أوسع من تجربته (التبشيرية).. تلك التجربة التي استمرت لسنوات مديدة قضاها في منطقة الخليج، فاختلط بأهلها، وتعلم لغتهم، وعرف عاداتهم وطباعهم، وشهد المؤثرات الدينية والقبلية والعادات على مسلكهم، ولا بدّ أنه اكتشف صعوبة التبشير بينهم.. كتاب هارسون عن سكان الواحات ليس بحثاً، وإن كانت العديد من إشاراته تجعله في قيمة البحث.. فالملاحظات التي أوردها تحمل قيمة عالية كمادّة خام تحتاج من الباحثين الإجتماعيين الى إعادة تحليلها ودراستها.

إن ما كتبه هارسون مهمّ للباحثين السياسيين والإجتماعيين

المهتمين بمنطقة الخليج، وبالذات بالواحات، خاصة في الأحساء والقطيف، اللتين أفرد لهما المؤلف حيّزاً كبيراً من كتابه. ولكن قبل أن نعرض فصولاً من كتاب المؤلف، سنحاول الإشارة الى بعض من ملاحظاته المهمّة.

حجم الواحات واتساعها:

لماذا لم يزدد حجم الواحات، القطيفية والأحسائية؟. سؤال أحسب أن أحداً لم يسأله قبل هارسون ولا بعده؟. لماذا لم تنشأ واحات جديدة؟. هذان سؤالان ملحّان حقّاً.. فإذا كانت الواحة غنيّة بالمياه ـ وهو أمرٌ لا شكّ فيه ـ الى حدّ أن قوارب يمكن استخدامها في سواقي عيونها الهادرة لأميال كما يقول هارسون، وإذا كانت الحياة في الواحات لا تخلو وهي في أفضل ظروفها من أناس معسرين، وفقراء معدمين.. فلماذا لم تتوسّع الواحات وتنشأ أخرى جديدة؟ وهو الأمر الذي يمكن بسهولة، لو حدث، ليس فقط أن يقضي على كل أمارات الفقر والعسر، بل ويزيد من رفاهية المجتمع بنسبٍ غير عادية.

لا يبدو أن المشكلة تعود الى نقصان في الأيدي البشرية العاملة، ولو وجدت فهي في حدود دنيا، وأيضاً كان يمكن التغلّب عليها بسهولة أو بالأصح بشكل تلقائي، ذلك أن الواحات الغنيّة لازالت يومئذ تجذب اليها أعداداً غفيرة من الجياع وأنصاف العراة، الذين تقذف بهم الصحراء الغربية، والحروب القبلية المستعرة في الداخل. كان بإمكان هؤلاء أن يشكّلوا المخزون البشري الذي لا ينفد بالنسبة لواحات زراعية صاعدة، وترف حياة جذّاب.

غير أن الذي حدث ليس هذا.. الدكتور هارسون أشار الى

عامل مهم، ولكنه غير كاف في تبرير عدم توسّع الواحات. قال أن السبب يكمن في حقيقة أن البدو لا يميلون الى ممارسة مهنة الزراعة.

هذا صحيح جداً، فالبدو يحملون قيماً تقدّس (الغزو) والعيش اعتماداً على القوة (الحرّ يأكل بمخلابه) وعلى الرعي. الزراعة مهنة هابطة شأنها شأن المهن الحرفية الأخرى كالحدادة والنجارة وغيرهما. والبدو بطبعهم يحتقرون من يمارس هذه المهن الوضيعة بنظرهم، كما ويحتقرون سكان المدن، وبديهي انهم لا يمارسونها، ولكنهم ـ إذا ما أُتيحت لهم الفرصة ـ يقومون بنهب من يمارسها!

وبالتالي فإن البدو، رغم وفرة عددهم في مناطق الشرق المحيطة بالواحات الأحسائية والقطيفية، فإنهم لا يُشكلون نسبة يعتدّ بها في سوق العمل، ولا يفترض أن ينظر إليهم كقوة عاطلة كان يفترض أن تزرع النخيل والبرسيم!، فمهنهم لم تكن لتخرج عن حدود (الغزو والرعي) إلا في النادر.

لكن، وكما ذكرت، هذا ليس سبباً كافياً، يمنع الواحات من الإنتشار والتوسّع.

وفي اعتقادي أن هناك، إضافة الى ما قاله هارسون، أسباباً مهمّة أخرى. ولكن قبل هذا، تجب الإشارة هنا الى أن الواحات لم تتوقّف عن التوسّع، ولكنّه كان توسّعاً بطيئاً للغاية، فعدد أشجار النخيل يزداد، وكذلك المساحة المزروعة بالضرورة. أشار إحصاء عثماني أُجري على نخيل القطيف عام ١٩٠٢، الى زيادة قدرها نحو ١٠٠ ألف نخلة، ولكن لم يذكر التقرير البريطاني الذي أشار الى هذه المعلومة متى أُجري الإحصاء الذي سبق هذا. انظر: (I.O.R V/23/83 Year 1903).

هناك إشارات تاريخية الى واحات ومدن اختفت في المنطقة

واندثـرت تحت الرمـال، كما أن هناك إشـارة واحدة ربـما تكون نادرة أيضـاً، وهـي أن مدحت باشـا كان حـين زار القطيـف في عام ١٨٧٢ للإطمئنـان عـلى قواته التـي احتلت المنطقـة للتوّ، أراد تأسـيس مدينة جديدة أكثر صحيّة من القطيف.

أعتقد بأن السبب الرئيسي في عدم توسّع الواحات، هو أن زيادة عدد السكان فيها كانت قليلة الى أن استقرّت الأوضاع الأمنيّة فيها بعد استيلاء الملك عبد العزيز عليها عام ١٩١٣ . ذلك أن منطقة الواحات بقدر ما كانت جاذبة لاسـتيطان الغرباء والجياع والطامحين من مختلف بقـاع الجزيرة العربية، فإنها كانت أيضاً منطقة طاردة للسـكان بسـبب اختلال الوضع الأمني وهي مشكلة مزمنة لم تحلْ إلا متأخراً.

هذا، إضافة الى انتشـار الأمراض الوبائية كالطاعون والكوليرا والجـدري وغيرهـا، أدّيا ببسـاطة الى زيـادة محدودة في عدد السـكان، هـي الزيـادة الطبيعيـة إن لم تكـن أقلّ من ذلـك. وبالتالي فـإن الحاجة الى التوسّـع في الواحـات وإنشـاء أخرى كانت في أحـد أبعادها رهينة النمو السـكاني بصورة أو بأخرى. حتى الواحات التي دمّرت، والتي يكتشـف الأثريون بعضاً منها في عدد من مواقع القطيف والأحسـاء، هـي دليل في أحـد الجوانب عـلى هجرات سـكانية، لا أجد مـبرراً لها سـوى: اختلال الأمن. ولربما لاحظ المهتمـون أن القرى في الواحتين القطيفية والأحسائية، هي في مجملها متصلة متقاربة، إلاّ ما ندَر وشذّ، وأنّ الذي تعرّض للإلغاء والإختفاء من الخارطة هي القرى التي تبعد عـن التكتلات السـكنيّة الحضريّة، ربما بسـبب عـدم قدرتها على توفير الأمن لنفسـها، اعتماداً على الذات أو بمساعدة المحيط. أمّا التي بقيت حيّة من تلك القرى (الشـاردة) فإنها اعتمدت على توثيق علاقاتها مع

البادية الى حدّ التحالف، أو أنها قبلت بأن تتنازل عن كثير من امتيازاتها وثرواتها.

أيضاً فإن هذا لا يفترض أن يمنع العدد المتبقي من السكان، أياً كان حجمه، من أن يطوّر حجم الثروة لديه ويتوسّع في امتلاك الأرض وبساتين النخيل، خاصة وأننا نعلم أن عدداً كبيراً من سكان الواحة كانوا يعملون في نخيل لا يملكونها لأنفسهم، وإنما هم مجرد ضامنين (مستأجرين) لها.. وهناك قلّة من العوائل استطاعت أن تمتلك لنفسها بستاناً تأمن بواسطته عاديات الأيام.

هل كانت هناك مشكلة في تحصيل أرض مجاورة لزراعتها بفسائل النخيل، والواحة مطوّقة بالصحراء من أكثر الإتجاهات؟

هل كانت هناك مشكلة في توفير المياه، ووفرتها تشكل بحيرات خارج المدن، ومستنقعات كثيرة داخلها، وهي التي كانت تهدر الى حدّ أن الفائض منها كان كافياً لأن يجعل مياه البحر القريبة منها حلوة؟. جاء في تقرير بريطاني عن عين داروش (في مدينة صفوى) أن مياهها كانت تهدر بشكل يثير الاستغراب، وأنه (لم يتم استغلاله استغلالاً كاملاً، وأن الفائض من مياهه يصل الى البحر عند قمة خليج القطيف، عن طريق ثلاث قنوات منفصلة، وهي -حسب التقرير- الحالة الوحيدة في القطيف التي تهدر فيها المياه بهذه الطريقة).

أم هل كانت هناك مشكلة في توفير الفسائل، وأدوات الحراثة والتسميد؟

أم أن المشكلة كانت تكمن في (علية القوم) الذين لا تقوم لهم قائمة إذا ما استقلّ الفلاح برزقه ومعاشه؟.

يبـدو أن كل واحـدة من هـذه الأمور لها نصيب مـن الصحة.. لكـن أسّ المشـكلة يكمن في المزارع نفسـه.. في شـخصية ابن الواحة، وهـي شـخصية تبعث عـلى الإحـترام في بعض الأحيـان، وفي أحايين أخرى تبعث على التعجّب والإستغراب.

إنّ ابـن الواحة، في الغالـب، ضعيف الطموح، قليـل التدبير.. طيّـب الى حدّ السـذاجة، قنوعٌ حتـى وإن كانت حاله قـد وصلت الى أدنى من حزام الفقر. هو يسـتطيع بسهولة أن يكوّن حاله بالتعاون مع أضرابه الفلاحين الآخرين ويتخطّى حواجز الفاقة، لكنه لا يفعل، أو لم يجرّب فعل ذلك. ربما كان انشغاله بلقمة العيش اليومية، جعلته غير قادرٍ على التفكير الى أبعد من أرنبة أنفه.

وربّما يكون نظام (الضمان/ الإستئجار) للنخيل أحد الأسباب المركزية في معاناته. فالنظام فيما يبدو قد روعي فيه أن لا يميت الفلاح جوعـاً، وأن لا يبعث فيه طموح الإسـتقلال مادياً. والذي يحدث في النهاية أن القلّة من ملاك البسـاتين يسـتحوذون على معظم البسـاتين، التـي يعمل فيها الفلاحون بالضمان، أمّا التوسّـع فمحدود، وربما كان في الغالب لصالح أولئك الملاّك.

مما لا شكّ فيه أن النخيل البعيدة عن المواقع السكنية هي الأكثر تعرّضاً للنهب والسرقة من قبل البداة، ولعلّ المرء يفكر في ذلك كسبب وجيه، وهو أنّ التوسّع مرتبط الى حدّ ما بقدرة القرية وعمدتها على توفير الحماية لبسـاتين نخيلها، خاصة الأطراف منها، إمّا عبر المعاهدات مع بـدو الجوار، وهو كثيراً ما يحدث، أو عبر توفـير حماية محليّة كان صعباً تحصيلها خارج أسـوار المدينـة أو القرية. ولأن توفير الأمن مرهون في أكثـر الأحيان بعمدة البلدة –خاصة في سـني العهد العثماني الأخيرة–

حيث لم يكن بإمكان القائمقامية في القطيف والمتصرفية في الأحساء القدرة على مجابهة البداة.. لذا كان من الصعب على الفلاح البسيط أن يجازف بعمل قد لا يرضي العمدة، وهو بلا شك أحد أكبر الملاك، وإن فعل فإنه قد لا يستطيع تحصيل حمايته لبستان نخيله الجديد. هذا مع الأخذ بعين الإعتبار أن كثيراً من الفلاحين ينتقلون للسكنى في بساتين نخيلهم، وبالتالي قد تكون حياتهم معرضة للخطر، وهناك الكثير من القصص عن مزارعين فقدوا حياتهم بسبب تعرضهم لهجوم البداة وسرقة ثمرة نخيلهم.

طبقات المجتمع

(أ) طبقة الملاك والتجار:

قسّم هارسون مجتمع الواحات الى طبقات حسب الإنتماء المهني. أشار الى أن أرقاها هي طبقة: ملاّك الأراضي والبساتين إضافة الى التجّار.. وهذه الطبقة متداخلة كثيراً بحيث أن الملاك يمارسون مهنة التجارة والعكس صحيح أيضاً. هذه الطبقة هي الحاكمة فعلياً في مجتمع الواحات الشيعية في القطيف والأحساء، وكانت في العهد العثماني قويّة للغاية بل كانت قادرة في فترة من الفترات على خلع متصرف الأحساء أو قائمقام القطيف بسهولة ويسر. حتى القائمقام ما كان يمكن له الإستمرار في عمله بدون أن يتفاهم مع التجار، خاصة وأن العثمانيين ابتدعوا مجلساً أهلياً تشاورياً يتشكّل في أكثره من التجار والملاك، مما جعل الأخيرين قادرين على فرض السياسة التي يريدون.

غير أن هذه الطبقة فقدت شيئاً من مكانتها السياسية، وإن

استطاعت تنمية وضعها الإقتصادي بسبب الرخاء الأمني، بعد أن استولى الملك عبد العزيز على الواحات. فابن جلوي، أمير الأحساء أبعد التجار والملاك عن مجلسه من أول يوم وصل فيه الى الإمارة، فهو لم يكن ليسمح لهذه الطبقة أن تؤثر على قراراته الداخلية خاصة في موضوع فرض الأمن. وكانت هذه هي توجهات عبد الرحمن بن سويلم أمير القطيف أيضاً. فالطبقة العليا في المجتمع إنما تؤثر على الأمير الضعيف، حسب تعبير هارسون.

تجدر الإشارة هنا الى أن العلاقة بين تلك الطبقة وبين الحاكم الإداري لم تكن متوترة، إذ استمرّت في تمثيل المجتمع ومصالحه أمام السلطات. كانت مفاتيح المجتمع بيدهم، بحكم الأمر الواقع. فهي الطبقة المتعلّمة، والمهتمة أكثر من غيرها بشأن التعليم، وليست مالكة الثروة فحسب. وكانت تأتيها أخبار المجلات والجرائد من البحرين ومصر والعراق، أي أنها كانت مطلعة على الأوضاع العامّة. وكانت قوتها في المجتمع تعتمد على حقيقة أن قوت كثير من الناس محتكر في يديها، وكانت ـ وهذا مهم أيضاً ـ على صلة قوية برجال الدين، الذين كان بعضهم يحسب على هذه الطبقة الغنية، الأمر الذي عزّز مكانتها في المجتمع وأخضع الناس لها.

كان العمد ورجال الدين في كثير من الأحيان إضافة الى الملاك أشبه ما يكونوا بأواني مستطرقة.. وقواهم في المجتمع محسوسة. فالصنف الأول تتدعم قوته كونه يمثل السلطة الأمنيّة، حيث يأمر وينهى ويسجن حتى، والثاني (رجل الدين) لديه الجمهور وقوته، وكان باستطاعته، وربما لايزال، تحريكه بالإتجاه الذي يراه مناسباً، ولم يكن الكبار بغافلين عن هذه القوّة، التي أُفسدت في بعض الأحيان

لفرط التصاق عدد وافر من رجال الدين بالأغنياء ومخططاتهم. أما الثالث، فرصيده المالي يمنحه المكانة الإجتماعية، ودفعه للخمس أو بعضه، واهتمامه ببناء حسينية أو تصدّرها يزيد من مكانته الإجتماعية، ويغطي ذلك برداء ديني يمنع عنه مقالات السوء.

لاحظ جوان كول في بحثه الرائع حول (الإمبراطوريات التجارية المتصارعة والشيعة الإمامية) في شرق الجزيرة العربية بين عامي ١٣٠٠ ـ ١٨٠٠م، لاحظ عمق الإرتباط بين رجل الدين الشيعي في مناطق شرق الجزيرة العربية وطبقة الأثرياء، من جهة أن أفراد الطبقة الأخيرة هم القادرون مالياً على ابتعاث أبنائهم للدراسة في الحواضر الشيعية (العراق بشكل خاص) ولذا كان التاجر الثري أخاً لرجل الدين، وكان لذلك أثره البالغ في تشكيل صورة رجل الدين في المخيال الإجتماعي، وفي تقليص ارتباطه بفئات المجتمع المسحوقة. بالطبع لا يمكن أخذ هذا الأمر على إطلاقه. لكننا لاحظنا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين، أن الثروة المالية كما التعليمية كانتا وجهين لعملة واحدة، فرجل الدين غنيّ بصورة من الصور بغض النظر عن طريقة العيش التي يختارها (إسرافاً أو كفافاً).. كانت تحت يديه أموال غير قليلة للتصرف بها من الأخماس والأوقاف، حيث أن نسبة عالية جداً من بساتين النخيل في المنطقة قد أوقفت على فعل الخير، وهذا يدلّ على حالة تديّن متأصّلة في أعماق الوجدان الشعبي.

يبقى أن نقول بأن الطبقة العليا في مجتمع الواحات كانت تعيش حياة ترف وبذخ، الى حدّ أنها كما يشير هارسون كانت تعيش وضعاً أفضل من وضع الحاكم الإداري نفسه. لاحظ هارسون ان

هذه الطبقة دونها سواها هي التي تعتمد تعدد الزوجات، وذلك لأن الزواج مكلف مالياً ولا أحد يستطيعه إلاّ الأغنياء. أيضاً لاحظ أن هذه الطبقة في سلوكها يميل الى التكبّر على بقية أفراد المجتمع، فما دام التمايز في الواحات قائماً على مقدار الملكية الخاصة، فإنّه وبصورة تلقائية أفضى الى خلق شعور عند الملاّك بالتفوّق والتعجرف، وعند الفرد العادي بالصغار والخضوع الذليل.

كانت معاملة هذه الطبقة لمن دونها يتسم بالإستهانة الشديدة، والتكبر المقيت، والإذلال. لقد استثمر أبناء الطبقة العليا نقاط الضعف عند الفرد الشيعي العادي: الطيبة المتناهية الى حد السذاجة، المسالمة، الرضا بالقضاء والقدر، والترفّع عن الصراع على الماديات، ليسخروها في سبيل إحكام سيطرتهم، وإخضاع من تحتهم، بصور مهينة.

قارن هارسون معاملة الملاك للفلاحين، ومعاملة شيخ القبيلة لأفراد قبيلته، فلاحظ أن العلاقة في الواحة تقوم على أساس التوسّل والجثي على الركبة، والكلام الذي يقال مجازاً، والنظرة الى الأرض وهو يتحدث، والمحاذرة في الكلام، وعدم التداخل الإجتماعي.. بينما لا يُشعر رئيس القبيلة أبناء قبيلته بالصغار، ولا يقبل هؤلاء أن يفعلوا ما يفعله ابن الواحة.

وكانت علاقة المالك بضامن البستان تميل الى الإستغلال والسخرة في بعض الأحيان. كان الفلاّح في أكثر الأحيان عرضة للمعاناة، وشروط الضمان (استئجار بستان النخيل) أساس تلك المعاناة. لكن هارسون الذي تحدث كثيراً عن ذلك قال أن إمكانات تعديل شروط الضمان ممكنة إذا ما كان ناتج النخيل في سنة من السنوات قليلاً، إمّا أن يذهب مباشرة الى المالك ويتفاهم معه حول

الأمـر، أو يذهـب الى أمـير البلـدة، أو الحاكـم الإداري للواحـة (في القطيف أو الأحسـاء) ليتمّ تعديـل الضمان، وكثيراً ما يميل الحاكم الى الفـلاح. طبعاً كان هذا يتم في العهد السـعودي، أمـا في العهد التركي فلا يبدو أن شيئاً منه كان يحدث.

لكـن هارسـون مع هـذا يشـير الى نقطة قـوة لـدى المزارعين لم يلتفتوا اليها، ولكن الملاك يدركونها جيداً، وهي أن الضامن لا يضغط كثيراً على الفلاح أثناء الأزمات رغم أنه قادرٌ على ذلك بناء على اتفاق الضـمان، والسـبب لا يعود الى نزعـة خير لدى المالـك، ولا لرغبته في تفـادي ما يقـرّره أمير المنطقة لصالح الفلاح، ولكن لسـبب مهم وهو أنـه يعلم بـأن الفـلاح الضامـن يدير ثـروة كبيرة بـين يديه (البسـتان وملحقاتـه)، وأنـه إذا ما جاع المظلـوم، فلن يعتني بالبسـتان، وبالتالي سـيقل منتجه السـنوي وسيهبط سـعر البستان نفسـه. ومن هنا تكون ضرورة مراعاة احتياجاته بقدر يجعله يعيش قدراً ولو ضئيلاً من الحياة الكريمة.

لكن قد يحدث أن بعض الملاّك يستبدّ بهم الطمع والجشـع فلا يقاومونـه، ويعتقدون أن بإمكانهم إجبار الفـلاح على فعل ما يريدون دون أن يؤثر ذلك على مقدار عطائه، ولا شك أن كثيراً منهم، وبسبب الرقابـة الدائمـة القريبـة لعمل الفـلاح، نجحوا في ذلـك، رغم حجم المعاناة الكبير الذي تسببه.

(ب) الحرفيون:

يـأتي في المرتبـة التاليـة بعـد طبقـة الفلاحـين من حيـث العدد، الحرفيون. وأغناهم طبقة الحائكون الذين يمارسون مهنة صناعة العبي

بشكل أساس في واحة الأحساء. قال عنهم هارسون أنهم طبقة بالغة الغنى، وأن نظام عملهم يعتمد على (القطعة) وليس على الراتب. تحدث أيضاً عن المواد الأولية التي تجلب إليهم من مصادر مختلفة، أحدها: البادية التي تزودهم بالصوف المغزول، وثانيها إيران وثالثها بريطانيا. لقد ربطت هذه الصناعة أربابها بعلاقات واسعة في محيطهم الإقليمي والعالمي، ولاتزال هذه المهنة قائمة ومشهورة في الأحساء.

أيضاً، هناك فئة ملحقة بالحائكين، وهم فئة الخياطين، الذين يقومون بصناعة الأثواب، وتطريز العباءات بخيوط ذهبية، لاحظ هارسون أن بعض الناس امتنعوا عن لبسها اعتماداً على أحكام دينية طغت على الأعراف السائدة.

ويأتي الصفارون والحدّادون في مرتبة إجتماعية واقتصاية أدنى.. الصفارون يصنعون الأوعية المعدنية، كالأواني المنزلية، ودلال القهوة، التي كانت تعتمد على النحاس. وقد شحّ هذا العنصر أبان الحرب العالمية الأولى، وفي نفس الفترة دخل عنصر الألمونيوم كمنافس.

أما الحدادون، فمهمتهم في الأساس صناعة أدوات الزراعة والمسامير، حيث يستورد الحدادون قوالب الحديد من الهند، وقال هارسون ان مسامير الحديد لا غنى هنا في صناعة القوارب المحليّة، لأنها أكثر مقاومة للأملاح من المسامير المستوردة.

(ج) طبقة الغواصين:

وقد أفرد لهم هارسون فصلاً كاملاً.. لأهمية الغوص من الناحية الإقتصادية لمجتمع الواحات، وبالخصوص القطيف التي كانت تساهم بقدر كبير في هذا اللون من النشاط الإقتصادي. وقد

قدّرت تقارير بريطانية ما استوردته البحرين من لآلئ القطيف في عام ١٨٩٦م بـ ١١٥٥٠٠٠ روبية، وفي عام ١٨٩٧ بـ ٨٨٠٠٠٠ روبية. وهذه المبالغ ضخمة، بل خيالية.

أما حديث هارسون عن الغوص فلا جديد فيه فيما يتعلق بطرق صيده والمشاركة فيه. ولكن ما يتوقف المرء عنده حديثه عن إدخال المكننة في صيد اللؤلؤ وكيف أن بريطانيا التي كانت تحكم الخليج العربي (وحبّاً منها لفعل الخير!!) رفضت ذلك. وبالتالي ـ وكما يقول هارسون ـ فإن الغواصين مدينون بالشكر لها! رغم أنهم لا يثمّنون صنيعها. هذا الكلام غير دقيق فيما يبدو لي. فبريطانيا لم تُدخل شركات لصيد اللؤلؤ لا بسبب حبها لفعل الخير، وهي ما جاءت لهذه المنطقة حباً فيه!، ولكن لأن الطرق الحديثة وُجدت غير مجزية مادياً. وقد جرّبت بعض الشركات الأجنبيّة ذلك ففشلت وكأن أحد أهم أسباب فشلها أنها اعتمدت على الغوص في الجهة الشرقية من الخليج العربي حيث المحار قليل كما هو السمك.. إضافة الى أن العثمانيين كانوا يرفضون ذلك، ودخول الشركات البريطانية معترك صيد اللؤلؤ قد يفضي الى دخول شركات ألمانية منافسة، فضلاً عمّا يجرّه دخول هذه الشركات من إثارة النقمة على التواجد البريطاني بشكل عام، ولربما جرّ ذلك الى مهاجمة قوارب هذه الشركات في عمليات انتقامية وقرصانية.

أيضاً لاحظ هارسون أن بعض مناطق الخليج يزدهر فيها (الفجور) بعد عودة الغواصين من موسم الصيد، وجيوبهم ملأى بالروبيات (كلاّ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى)!. أيضاً لاحظ بأن أسعار السلع تتضاعف بعد عودتهم، وهذه مسألة طبيعية، حسب قانون العرض والطلب الأمر الذي يفضي الى التضخم.

عالج هارسون مسألة العلاقة بين النوخذا والغوّاص والتي تصل الى حالة من الإستعباد، تفوق في حقيقة الأمر مشكلة الفلاح مع ملاّك النخيل. فالغوّاص مديون طيلة العمر، وقد يتم استعباد ابنه من بعده. النوخذا يقرض الغوّاص، ويزيد من الديون اعتباطاً بدون رقيب أو ضمير، وحين يبيع اللؤلؤ، يتعمّد الغش والخداع، فيسرق جهد الغوّاصين الى حد أن ما يتحصّل عليه الغوّاص لا يغطي ما أخذه من النوخذا لنفس العام.

من الأمور اللافتة حقاً، والتي لاحظها هارسون، أن الغواصين الشيعة، أو على حدّ تعبيره (البحارنة) هم أكثر الضحايا بسبب سذاجتهم المفرطة، بعكس الغواصين من أصول قبلية بدوية، الذين لا يستطيع أحدٌ أن يستغلّ جهودهم، وإذا ما حاول النوخذا ذلك فسيفقد رأسه.

هؤلاء الغواصين لا يستدينون بعكس نظرائهم الشيعة، ويتعاونون في شراء المركب أو استئجاره، والغوص بأنفسهم، أي العمل لحسابهم، ومن ثم يبيعون اللؤلؤ فيزدهر حالهم. أما الغوّاص الشيعي، فيستفرد به النوخذا، ولأن صفة التعاون ـ كما لاحظها هارسون ـ تكاد تكون منعدمة بين الغوّاصين الشيعة، حيث الثقة ضعيفة، وهو داء أخال أنه لازال يجري في عروق المجتمع الى هذا اليوم مع الأسف. فإن هذا يجعل الخروج من حصار الديون والنوخذا الظالم أمراً صعباً.

لكن هارسون استدرك حقيقة أن البدوي لا يديّنه أحد، والسبب أنه شخص متنقل من مكان الى مكان، أما القروي الشيعي، فمقيم وخيارات تنقله محدودة للغاية، وبالتالي فإن النوخذا يستطيع جلبه في أي وقت.

علاقة البادية بالحاضرة:

لم يفرد هارسون لهذا الموضوع الخطير والمهم فصلاً بعينه، ولكن من خلال ما ذكر في مجمل الفصول، فإنه استطاع بنحو أو بآخر رسم صورة مقرّبة عنها. وهارسون الذي شهد نهاية العهد العثماني في الأحساء، كان يدرك التغيير الهائل الذي جاء به العهد الجديد (العهد السعودي) في مضمار الأمن، فبعد أن كانت مدن الواحات وقراها محاصرة من قبل البادية، صار البداة في وضع سيء على يد الأمير عبد الله بن جلوي، الذي تحدث لنا هارسون عن بعض قصصه وشدّته لتثبيت دعائم الأمن.

ومع أن هارسون لم يوفق كثيراً في تحليله لطبيعة القبيلة العربية وعلاقة أفرادها بشيخها، وعلاقة هذا الأخير بأمثاله ونظراءه، فإنه رسم صورة لا تخطئها العين، وهي وضع الواحات في عهد الحكم العثماني وكيف أن سيئته الوحيدة تكاد تكون أو تكمن في عدم قدرته على توفير الأمن لها. لقد وضع هارسون إصبعه فعلاً على الداء. قال بأن الإدارة العثمانية في الأحساء والقطيف مرضي عنها شعبياً، الشيء الذي لم يكن مقبولاً هو عدم قدرة الحكومة على توفير الأمن، وكان ذلك سبباً كافياً لتغيّر بوصلة الولاءات.

الناحية الإقتصادية:

أكّد هارسون في كتابه على حقيقة أن بادية الواحة، والتي لم يضع تقديراً لعدد قاطنيها، كانت بحاجة الى الحاضرة، أكثر من حاجة الأخيرة إليها من الناحية الإقتصادية. وفي بعض حقب التاريخ، حاول سكان الواحة معاقبة البداة الذين يتعرضون للقوافل والبساتين بالنهب والتخريب، عبر منعهم من شراء ميرتهم، كما حاولوا ذلك ذات مرة

مع العجمان في الأحساء، ولكنهم فشلوا، لأن الأخيرين كانوا قادرين على تهديد أمن الواحة أكثر، بسبب ضعف القوات العثمانية وقلتها.

البادية تستطيع توفير موادّ معروفة وقليلة في الغالب: الصوف المغزول، الزبدة، والجلود، والإقط. بيد أن هناك موادّا اخرى ربما تكون أكثر أهمية، وهي: تصدير الخيول العربية، عبر بيعها للحواضر ومن ثمّ يقوم التجّار بنقلها الى الخارج.

أما البدو فهم بحاجة الى الحاضرة في كل شيء: الغذاء (تمراً، أو حنطة، أو أرزاً) والملابس، وأدوات الطبخ، ومواد الحدادة والنجارة، والحلي بشتى أنواعها، وغير ذلك مما هو متوفّر عادة في سوق الواحة. حتى الكتب قال هارسون مندهشاً أنها متوفرة في السوق وإن كان البدو في العادة لا يقرأون، ومن الشاذ أن يشتروا منها شيئاً. مع أن وجود الكتب في السوق المحلية في تلك المرحلة الزمنية من التاريخ لا شك تحمل الكثير من دلالات التطور والنهوض الثقافي والفكري.

نظرة البدوي الى الحضري والعكس:

البدوي يرى المجتمع الحضري كمجتمع استغلالي، ولا شكّ أنه كان يرى في طبيعة العلاقة بين زعماء القرى والمدن في الواحة وكذلك الملاك والتجار، علاقتهم بالطبقات الدنيا في المجتمع، ما يدعم رأيه. وهو في هذا لم يذهب بعيداً ـ من وجهة نظري ـ عن الحقيقة.

والبدوي يرى أن المدينة سيئة للسكنى، رغم أنه يحسد الأغنياء على ما في أيديهم من أملاك ورياش. وفي هذا للبدوي كثير من الحق، خصوصاً فيما يتعلّق بواحة القطيف، فهي فعلاً تعتبر مكاناً سيّئاً للسكنى في تلك السنين الخوالي. لماذا؟. ببساطة لأن مناخها جدّ سيّء،

والبدوي قد يتحمّل مناخ واحة الأحساء الجافّ، ولكنّه لا يطيق البقاء كثيراً في واحة القطيف القريبة كثيراً من البحر، والتي تتميّز بنسبة رطوبة عالية جداً تصل الى مائة بالمائة، وحيث تمتليء بالمستنقعات الكثيرة التي نشأت بسبب كثرة المياه التي لم تصرف بعيداً عن مواقع السكنى وبساتين النخيل، وهي بهذا أسوء من الأحساء، التي كانت المياه الزائدة تصبّ بعيداً (بحيرة الأصفر). ولذا ابتلي ابن الواحة القطيفي بأمراض الملاريا والتراخوما التي لا تعلوها نسبة في العالم، حتى كاد يخيل للناظر، أو هي الحقيقة كذلك ربما، أن عدد أصحّاء العيون، أقلّ من عدد الأشخاص الذين فقدوها.

وإذا كان من اللازم إضافة أمر، لم يذكره هارسون، فهو أن البدوي شديدة الإعتداد بنفسه، وهو ينظر الى ابن المدينة المستقرّ نظرة دونيّة، فهو من وجهة نظره شديد الرخاوة، طريّ العود، لا يمتلك الصلابة والشراسة في المواجهة، وربما رآه جباناً رعديداً أيضاً. وابن الواحة من وجهة نظره، دونيّ من زاوية ثانية، فهو قد امتهن مهناً وضيعة: كالزراعة، ولا بدّ أن يكون القائم عليها، من وجهة نظره هو صاحب المحتد، وضيعاً!

ابن الواحة يبادل البدوي الإزدراء والسخرية.. فهو وسخٌ قذر، لا يغسل جسمه مطلقاً، وليس بحاجة الى تبديل ملابسه أبداً. هو أيضاً متوحّش، متطرّف في معتقداته لا يأخذها الهوينى. تعرّض أحد البداة الذين اعتنقوا الوهابية المتطرفة (الإخوانية) حديثاً، تعرض لابن الواحة، فعلّق هذا بالقول: (هؤلاء هم الرجال الذين يعتقدون أنهم مؤهلون لإرشادنا في المسائل الدينية. إنهم لا يعرفون أبسط الصلوات. رؤوسهم ممتلئة بالقمل ومن الصعوبة أن يجد له مكاناً

فيها. ملابسهم لا يغسلونها قط. نساؤهم يخرجن بلا حجاب. إنهم حيوانات متوحشة ليس إلاّ).

ولاحظ هارسون بروز العنصر الديني (الوهابية) التي أجبرت القبائل على تبنيها وتمّ إخضاعهم على أساس قيمها. تحدث عن دور هذا العامل في توتير العلاقة بين الطرفين، وعلّق على الأمر بأن سكان الواحات كانوا فيما مضى أكثر تديّناً من البدو، وأن الآية انقلبت الآن. هذا الحديث قيل وكتب في فترة صعود نجم (الإخوانية) في بداية العشرينيات الميلادية، والتي استهدفت توطين البدو، واستخدامهم كجيش للإستيلاء على مناطق الجزيرة العربية الأخرى التي لم تكن خاضعة بعد للملك عبد العزيز آل سعود.

والحقيقة أن الإخوانية الوهابية، خفّفت بنسبة ما الفواصل بين الحضر والبدو فيما يتعلّق باحتقار المهن. لم يعد الإخواني (البدوي) يرى عيباً في الإستقرار، بل يرى أنه ضرورة دينية، ولم تعد مهنة الزراعة وأضرابها منبوذة لديه بالمنظار الديني الذي ساد يومئذ. لكنّها أي الإخوانية، أوجدت فواصل وتقاطعات على الصعيد المذهبي بين سكان الواحات غرباً وشرقاً وبين البدو المتديّنين حديثاً. هناك من الباحثين من يعتقد بأن الإخوانيّة أضافت سبباً للصراع بين الواحة والبادية، ولم تلغ أو تخفّف الأسباب الأخرى. كان البدوي يسلب وينهب الأضعف أياً كان ويشارك أبناء قبيلته في المنهوبات، والآن يغزو الكفار ويغنم ما لديهم، ولكنه يدفع الخمس للإمام ابن سعود.

أما الفوارق بين الحياة في الواحات وشبيهها في الصحراء، فيرى هارسون أنه رغم كل الشقاء فالحياة في الواحة جميلةً حلوةً حرّةً غير مقيّدة، مثلما هي لدى البدوي. الحياة في الواحة عفويّة، ألفة حسنة،

وأخوّة صادقة. أما البدوي فهو فرداني كتوم صامت، لا يشرك الآخرين فيما لديه. وبديهي أن الحياة في الواحة حيث الماء والخضرة والأمن أكثر إغـراءً للغربيين الذين يبحثون عـن أماكن تتوفر فيها الخدمات المادية، وحيث (يشعر وكأنه بين أهله وذويه)!

والواحـات بحكـم تعاطيهـا مـع البـلاد المختلفـة في التجـارة والإتصـال، اعتـادت الأجانـب أنّـى كانـوا، هندوسـاً أو يهـوداً أو مسـيحيين. عربـاً أو أتـراكاً أو فرسـاً أو هنـوداً أو غيرهـم. وقـد رأى هارسـون أن طبيعة ابن الواحة متسامحة مع الأجانب، بعكس البدوي الـذي اعتنـق الإخوانيّة أو السـلفية الجديدة، فهو أشـدّ عليهم، ولكن لأنّ الحماية متوفرة لهم من قبل الملك عبد العزيز ونائبه في الأحساء عبد الله بن جلوي، لم يكن أحدٌ ليقترب منهم، رغم أن مظاهر العداء بادية في الوجوه، وأحياناً كان يعبّر عنها بالبصق على الأرض!

الأمن في البادية والواحة:

لا يذكـر الأمـن في الواحـات إلاّ ويرد إسـم الأمـير عبد الله بن جلوي، فإليه ينسب الفضل في استتباب وضع الأمن وقطع دابر غائلة البادية.. إن حديث هارسـون عن ابن جلوي يسـتحق الإهتمام، فهو ـ أي ابـن جلـوي ـ من نوادر الرجـال حقاً. وقصصه مـع (العدالة!) لا تحتـاج الى تكـرار هنـا، فهي عديدة وقـد نثرت في كتب شـتّى. كان في حياتـه الخاصّة والعامّة أسـطورة بـكل ما في الكلمة مـن معنى. وكان كما يذكر هارسـون غير مهتم بملبسه الشـخصي، ولم يكن محابياً لأحد بالمرّة، لا من الصغـار ولا من الكبار. وكانت لابن جلوي الشـجاعة النادرة لأن يقول رأيه بصراحة وتبسّـط حتى وإن خالف (رئيسـه) بل ذاك من كان يريده رئيسـه حقّاً. أيضاً كانت شـدّته أقسى من الصخر،

فحفظ الأمن، وأرعب المجرمين، وصارت النساء تخوّف به أبناءها وهم في المهد، كما قال خير الدين الزركلي في كتابه (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز).

لاحظ هارسون أن طبيعة مجتمع الواحة تساعد على تحقيق الأمن الداخلي فيها بصورة سهلة، حيث أن العصبيات القبليّة وما يتبعها من قيم الغزو والثأر غائبة. هذا سبب أول. أما السبب الآخر، فهو أن الواحة جذبت عناصر بشرية قبليّة وحضرية متعددة الأصول والشعور لا يجمعها جامع سوى هدف جمع المال ليس إلاّ، وبالتالي لم يكن ممكناً (توفير روح جماعية مشتركة) يجري توظيفها للإخلال بالأمن.. فحتى القبليين الذين يعيشون بين الحضر لم يكونوا في وضع عملي أو نفسي أو يشعرون بالحاجة للقيام بالغزو والإخلال بالأمن. عكس هذا تجده في البادية، حيث لا تزال قيم القبيلة حاكمة، كان يكفي رئيس القبيلة أن يقرر الغزو فيتحد أفرادها خلفه، وإن قرر الأخذ بالثأر وجد من ينفّذ الأمر.

لم تكن الواحات تخلّ بالإمن، فالحضر كانوا على الدوام ضحايا غزاة البدو. ولذا يستغرب هارسون من أن الجرائم تكاد تكون معدومة في الحاضرة، يقول: (ومما يثير العجب أن مجتمع الواحات الكبيرة يخلو من تلك الجرائم) والمقصود جرائم القتل والسرقة.

توفير الأمن ومنع الجريمة هو مقياس الحكم الصالح في الجزيرة العربية. لم يكن موضوع الخدمات مطروحاً البتة. فالمواطن العادي لا ينتظر من الحكومة ولا يعتبر من وظائفها أنها يجب أن تقدّم له خدمة صحية أو تعليمية أو ما أشبه. ما هو مطلوب آنئذ، سواء كان تحت حكم العثمانيين أو الحكم السعودي هو توفير الأمن فحسب، ولهذا

السبب فإن نجاح الحكم السعودي في تحقيق الأمن وفّر قاعدة شرعية لقبوله وتفضيله على العثمانيين الذين فشلوا في تحقيق الحدّ الأدنى منه، خاصة في سنوات حكمهم الأخيرة.

والأمن في الحقيقة ليس بكثرة الشرطة. فقد كان لابن جلوي في الأحساء ـ حسب هارسون ـ مائة عنصر فحسب، أي واحد لكل ألف (كان تقدير السكان في الأحساء مائة ألف نسمة). الحسم، والشجاعة، وعدم المحاباة، وقدر معقول من العدالة كان كافياً لتوفير الأمن.

وظيفة الحاكم:

وظيفة الحاكم أو على حدّ تعبير هارسون (الشيخ العربي) الذي يدير منطقة أو بلداً أكبر من مضارب القبيلة يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط:

الوظيفة الأولى: توفير الأمن، على النحو الذي أشرنا اليه قبل أسطر.

الوظيفة الثانية: تحصيل الضرائب. قال هارسون أن الزكاة تشكّل جزءً كبيراً مهماً منها، وهي ٥ أو ١٠٪ كما هو معلوم. ولكن هذه الضريبة تحصّل بحساب محصول الثمار. لكن الذي يحدث غير هذا في الأغلب الأعم. فعادة ما يجري فرض ضريبة موحّدة على كلّ نخلة كان مقدارها (روبيتين) في وقت كتابة هارسون لكتابه ويقول أنه من السهل تحمّلها آنئذ، ربّما كان ذلك إشارة منه الى أن استتباب الأمن قد عزّز الحالة الإقتصادية للسكان وأمكنهم من دفع الضرائب حتى ولو كانت مرتفعة. وكان العثمانيون قد سبق لهم أن فرضوا روبية واحدة على كل نخلة. لكن هذه الطريقة تجعل من الصعب معرفة

النسبة المئوية لحجم الضريبة.

ولقد كان من السهل حقاً سواء كان بالنسبة للحكم العثماني أو السعودي تحصيل الضرائب من سكان الواحات، أما البدو الذين لا مستقرّ لهم في صحراء مترامية الأطراف فكان شبه مستحيل. العثمانيون وجدوا في بداية عهدهم الثاني في المنطقة، وأقصد في السبعينيات الميلادية من القرن التاسع عشر الميلادي، وجدوا حلاً يتلخّص في أن يدفع البدو الذين يردون الى منطقة الواحات ريالاً واحداً عن حمل كل بعير. ذات الملاحظة أشار اليها هارسون بالنسبة للحكم السعودي الجديد في منطقة الواحات، وهو أن تحصيل الزكاة من البدو صعب، وأميل الى ذلك حتى اليوم، وبالنسبة لأية حكومة. فالبدوي يأخذ ولا يعطي. ويعتبر ما يأخذه من الحكومة شطارة وحق في آن واحد. مهمة الحكومة من وجهة نظره أن تعطيه لا أن تأخذ منه. وهذا ما كان الأتراك يفعلونه ليدرؤوا المخاطر عن الواحات. وإذا ما توقفت الحكومة العثمانية عن دفع الرواتب كما فعلت عام ١٩٠٦، هاجم العجمان الأحساء وأوقعوا الخسائر، واضطرّت الحكومة والسكان الدفع فيما يشبه (الخوّة) إن لم تكن هي بعينها.

أما نظام بيع الضمان الجمركي (في الموانئ عادة) والذي يعدّ نظاماً مذموماً، فقد استمرّ في العهد السعودي الجديد، ويعتقد هارسون أنه أُخذ من الأتراك، أو أن الأخيرين هم الذين أسسوا قواعده في مناطق سيطرتهم. كان الضمان الجمركي لميناءي العقير والقطيف، أو بالأحرى موانئ القطيف المتعددة، قد بيعت أواخر العهد العثماني بسبعين ألف روبية، وكان الضامن الأخير من القطيف وهي علي بن فارس، الذي تولّى الضمان في عهد الملك عبد العزيز أيضاً، ولكن ليدفع هذه المرّة

سبعمائة ألف روبيّة، أي عشرة أضعاف المبلغ.

يبدو للوهلة الأولى أن ليس هناك مبرر لهذه الزيادة المتصاعدة والسريعة. ولكن الحقيقة هي أن نسبة الضرائب على الواردات والصادرات قد تضاعفت عدّة مرّات، كما أن حجم تلك الصادرات والواردات قد زاد أيضاً، لتوفّر الإمكانات لدى الأهالي، بالقياس الى الوضع السابق، بسبب استتباب الأمن.. بمعنى ان الوضع التجاري والإقتصادي قد انتعشا بقدر ما تحقّق من أمن. لكن هذا لا يلغي حقيقة أن هناك تعسفاً من قبل ابن سعود في جباية الضرائب في منطقتي الأحساء والقطيف الأمر الذي أدّى الى وقوع اضطرابات أمنيّة فيما بعد.

الوظيفة الثالثة: الإهتمام بعلاقات منطقة حكمه بما جاورها من قبائل وحكومات.

هذه هي الوظائف الثلاث التي يهتم (الشيخ العربي) بها.. وهي بالضبط ـ كما أشار هارسون ـ نفس الوظائف التي كانت تقوم بها السلطات العثمانية خارج إطار اسطنبول أو خارج حدود تركيا (لم تكن تلك الحدود مستقرة إلا بعد مضي سنوات عن انتهاء الحرب العالمية الأولى). فالسلطات العثمانية كانت في المناطق التي سيطرت عليها غير معنيّة بتوفير أيّ خدمة تجاه السكان عدا توفير الأمن مقابل ما تتحصل عليه من مال وضرائب، إضافة الى تنظيم العلاقات الخارجية مع الجوار، دولاً أو حكومات أو إمارات أو قبائل.

عبد الرحمن بن سويلم، أول أمير للقطيف، وهو واحد من ثلاثة أصدقاء أهدى هارسون كتابه إليهم (الآخران هما الملك عبد العزيز وابن جلوي).. يرى هارسون أنه أفضل الحكام الإداريين في

الجزيـرة العربية قاطبـة، ولكنه رغم ذلك لا يرى بل يسـتغرب أن من مهماتـه الإهتمام بالبازار، أو بقنـاة كان المرحوم منصور بن جمعة قد بدأ في أواخر العهد العثماني بشـقّها لتسـهّل ورود البضائـع الى عمق بازار القطيـف الـذي كان يفـترض أن ينتقل بالقرب منها. كان ابن سـويلم كما يرى هارسـون مستغرباً أن يكون بين مهماته ذلك، فمهماته الحقيقية تتلخص في:

- المحافظة على الأمن.
- المساواة بين المواطنين.
- وتنظيم علاقات البلدة بالقبائل المجاورة.

ومن الأمور التي لا تدخل في اختصاص الحاكم:

* لا يهتم بخطط الصحّة العامّة.
* لا يتدخّل في ممارسات رعاياه الدينية، عدا ما يعدّ هرطقة.
* لا يتدخل في توجيه الحياة الاقتصادية للمجتمع.

الانشقاقات الإجتماعية

يقـود موضـوع المسـاواة بـين المواطنـين الى حقيقـة أن مجتمـع الواحات يحمل قسـطاً من (التعددية) الثقافية في داخله. هذه التعددية تمّـت المحافظـة عليهـا على مدار قـرون طويلـة، ولم نسـمع أو نقرأ أن حربـاً بـين المواطنين في مجتمع الواحات قامت بسـبب تلـك التعددية، وأعني بها انقسـام المجتمع الى شـيعة وسـنّة، مع غَلَبَة عددية للأولين. كانـت لدى كلا الطرفين مدارسـهم، ومريدوهـم، ولم تكن الواحات برخاء سـكانها الإقتصادي تشـجّع على المضي والإنزلاق في التوترات المذهبية. كانت علاقة الخوالد على سـبيل المثال، والذين سـيطروا على

المنطقة عقوداً طويلة مع السكان المحليين سنّة وشيعة متسامحة، وإن بدت شديدة في أول حكمهم، فهي إنما تعكس طبيعة الحكام القبليّة، أي خشونة القبيلة، وليس التعصّب المذهبي.

لا أحد يمكنه توصيف علاقات المواطنين الحضر مع بعضهم البعض بأنها مثالية، ولكن يمكن وصفها بأنها علاقة مستقرّة، هادئة، تميل الى بعض العزلة من قبل كل طرف على نفسه، مع انفتاح محدود سواء بين علية القوم في المجتمع، أو بين الأفراد العاديين.

حين يتحدث هارسون، وإن كان في مرحلة لاحقة، عن الوضع الإجتماعي فإنه يقرّ بأنّ أسّها ديني. قال على نحو مجمل بأن العلاقات بين الشيعة والسنّة متنافرة، وأحسب أن شخصاً مثله كان يستعصي عليه التمييز بين الحضر والبادية، فالتعصّب لم تكن سمة الحضر، بل كان الأخيرون ضحاياه، وإذا كان هناك من اضطرابات وقعت بين الطرفين، والتي لم نقرأ عنها أو نسمع، فهي لا شك لم تكن بين المختلفين مذهبياً من الحضر في واحة الأحساء على وجه الخصوص، على اعتبار ان القطيف تسكنها أغلبية ساحقة من الشيعة، مع أكثرية سنيّة في بعض قرى تاروت (دارين ـ الزور) إضافة الى عنك التي تسكنها أغلبية من الخوالد، وكذلك أم الساهك والجبيل التي كانت قد تأسست حديثاً.

العلاقة بين الشيعة والسنّة في القطيف كانت متسامحة جداً وطيّبة في معظم إن لم تكن كل الأوقات، وكانت السفن تذهب للإبحار حاملة الغواصين شيعة وسنّة، وكان التداخل الإجتماعي غير قليل، والحساسيات المذهبية جدّ ضعيفة، وإنما الإختلافات كانت تقوم على أسس القبيلة، وليس بين الشيعة من يمجّد القبلية ولا نظام القبيلة، مع

أن بعض روح للعشائرية كانت سائدة.

ويرى هارسون أن الإنشقاقات في المجتمع الأحسائي تحمل صفة عرقية، ولكنها أهون من الإنشقاقات المذهبيّة. أيضاً فإن هذا القول قد وضع من قبل هارسون ضمن حدود ضيّقة، فالأعراق غير متعددة في الأحساء، الأكثرية الساحقة عربية، أي أكثر من ٩٩٪، بل أكثرها قبليّة أيضاً، أو بالأصح تعود الى جذور قبلية من وسط وجنوب الجزيرة العربية.

فمن يعرفون بـ (البحارنة) لا يشكلون عرقاً متميّزاً، لأنهم أتباع قبائل عربية قديمة استوطنت المنطقة قبل الإسلام، وهم في جلّهم من قبائل (عبد القيس وبكر بن وائل وتميم) وأضحت لفظة (البحارنة) دالّة على الإنتماء أو (التعيير) المذهبي، وليس على تميّز عنصر ما.

نعم.. وُجد بعض العراقيين والفرس في منطقة الواحات، لكن بقاء هؤلاء كان غير مستقر، وبينهم هنود أيضاً، يأتون لوقت التجارة ويرحلون. يجب أن ندرك حقيقة أن منطقة الواحات كانت تقوم بدورين متناقضين: هي من جهة جاذبة للسكان من العمق الصحراوي، ومن جنوب الجزيرة العربية، حيث الفقر والمجاعة والحروب. وهي من جهة ثانية طاردة للسكان الى الشرق، وكأنّها منطقة ترانزيت، يتمّ فيها ترحيل السكان الى الشرق والشمال. لم تكن الواحات رغم خيراتها مغرية للعراق أو إيران، فالهجرة السكانية (الى) هذين البلدين كانت قائمة حتى وقت قريب وليس العكس. وهنا مهما قيل عن محدودية الوافدين من الخارج فهم ـ من غير أبناء الجزيرة العربية ـ قلّة جدّ محدودة العدد، ضئيلة التأثير.

أيضاً أشار هارسون الى الإنقسامات الإقتصادية في مجتمع الواحات

بين الأغنياء والفقراء، ويرى أنها المسبب الأكبر للإضطرابات، كما أشار الى انحياز الحاكم الى جانب الفقراء في وضع فريد من نوعه، جدير بالتقدير والإهتمام. وكما أشار هارسون فإن (الشيوخ) يتدخلون في الغالب لصالح الفقراء، وأن الأغنياء لا يستطيعون التحكّم في الناس ولا في تقدير حجم الضرائب، كما لا يحصدون كل المنافع بل نصفها. وفي المقارنة فإن متوسط دخل الفرد في الواحات أعلى بكثير من نظيره في الصحراء.

الهاجس الديني

يزعم هارسون، أن النصراني المبشّر ينظر اليه باعتدال أكبر في الواحات، بأكثر مما ينظر الفرد السنّي والشيعي الى بعضهما البعض، حيث التكفير والرفض. ومع هذا قال إن النصارى واليهود (كان هناك بضعة أفراد من اليهود العراقيين تجاراً وأطباء غير مقيمين بشكل كامل) يتمّ التعرّض لهم، وقال أن يهودياً تمّ إيذاؤه وقد حماه ابن جلوي من بطش العامّة.

لا أظن أن أحداً سبق هارسون الى ملاحظة هامّة ومميّزة لمجتمع الواحات في شرق الجزيرة العربية وبالخصوص في الأحساء والقطيف والى حد ما البحرين. الملاحظة تقول بأنه رغم الغنى النسبي، ورغم التواصل البشري لمناطق الساحل مع العالم، فإن (تديّن) سكان الواحات أعلى من أي مكان في العالم (تقديراً) أو حسب تعريفه فإن التديّن يعدّ (الهمّ الأساسي لكافة أبناء المجتمع). لا يبتعد الباحث عن الحقيقة إن قال بأن تدين سكان الواحات شديدٌ للغاية، ولازال حتى اليوم ورغم التحديث الإجتماعي كذلك، وتلعب الظروف النفسية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية والبيئية دوراً صاعقاً في التأكيد

على العنصر الديني. وأظن أن النزعة التكفيرية الوهابية قد أدّت الى رد فعل عكسي متأصل لدى السكان الشيعة الحضر، الذين يشكل المذهب العنصر الأبرز في تشكيل الهوية.

من مؤشرات التديّن في الماضي: كثرة الأوقاف، إذ أنها تشمل ما يزيد على نصف بساتين النخيل. إن الجود بالمال والأملاك الزائدة على الواجب الشرعي مؤشر ذو أهمية قصوى. ففي الوقت الذي لا يورّث الرجل فيه مالاً لأهله وولده رغم الحاجة لذلك.. يقوم بتحويل ما يملك الى جهة ثانية وعليهم هم أن يتدبروا أمرهم. وحتى هذا اليوم فإن الأوقاف ضخمة في منطقة القطيف ولا بد أن تكون كذلك في الأحساء، ولكن سوء الإدارة، والإهمال عامّة لبساتين النخيل، وزهد الناس في المساس أو حتى الإقتراب من تلك الأوقاف، أطمع قلّة لا ضمير لها ولا دين في التحايل من أجل سرقتها والتلاعب بها.

ومن مؤشرات التديّن: الدور الطاغي لرجال الدين في مجتمع الواحات الشيعية، وهذا الدور كان ولازال طاغياً الى أبعد الحدود. يستمد رجال الدين قوّتهم من تقدير الناس للدين ولدور رجل الدين كرمز للهوية الخاصة التي تتعرض للإنتقاص من دعاة الوهابية، ومن الإمكانات المالية التي تتوفر تحت أيديهم والتي يفترض أنها توظّف في مساعدة المحتاجين وحل مشاكل المعوزين، إضافة الى السلطة المعنويّة الناشئة من كليهما، ووجود نسق معيّن لتأهيل رجال الدين وتواصلهم. اعتبر هارسون رجال الدين في الواحات يمارسون أعمالاً اجتماعية وسياسية أو تدخل في ذلك التصنيف كالقضاء بين الناس وحل المشاكل الناشبة بينهم، إضافة الى قيامهم بالتدريس وتعليم الصبيان وإدارة المدارس، مما يجعل نفوذهم كبيراً.

طبيعة الحكم العثماني للواحات

كان تقييم هارسون لحكم العثمانيين في المنطقة معتدلاً، وللحق فقد كان منصفاً، وإن ما عكسه من آراء الناس تجاه ذلك الحكم أيضاً يحمل صفة الإعتدال والواقعية.

ملخص التقييم، هو ما قاله هارسون من أن حكومة العثمانيين لها قدر من الشعبية.. لقد كرهها الناس لأنها لم توفر الأمن، فتعدت البادية على الحاضرة.. أما الإدارة المحلية ـ حسب هارسون ـ فغالباً ما تذكر بالإطراء. إذن فالإشكال الأكبر هو أن الناس لم يكونوا يكرهون العثمانيين لأنهم غير عرب، فتلك النزعة لم تكن موجودة في الواحات وربما غيرها، فالنزعة الدينية تغلب العرقية، ولم يكن حكمهم مكروهاً على الصعيد المحلي بسبب قسوة الظلم وما أشبه، وهو أمر فعله الأتراك في مناطق عديدة احتلوها. وإنما السبب الذي جعل الناس يتحولون عنهم، هو أنهم لم يكونوا قادرين على توفير الأمن، وأي حكومة تفشل في هذا ـ خاصة بالنسبة للواحات ـ فإنها تفقد قيمتها كحكومة، وتفقد احترامها. ومعروف ان الجانب الأمني يؤثر ليس على أرواح المواطنين بل وعلى معاشهم أيضاً. فإذا ما تدهور الأمن تدهورت الحياة الإقتصادية وترك الناس الواحات متجهين شرقاً في هجرات لا تعود في الأغلب.

وإلا فإن كل الأوصاف التي أوردها هارسون تشير الى أن حكم العثمانيين يتمتع بقدر من التأهيل في تأدية دوره:

فالحكام والمتصرفون وغيرهم متعلمون ويتقنون عدّة لغات، بل هم حسب هارسون أكثر تعليماً وتأهيلاً من نظرائهم الأميركيين والفرنسيين.. وهم مهذّبون دمثون للغاية، نظيفون، ولكنهم لا يحبّون

التحدث بلغة عربية، لغة أمّة مَسودة (محكومة) من قبلهم.

والذين حكموا شرق الجزيرة العربية منهم، حسب هارسون أيضاً، مؤهلون تعليمياً ولهم قابليات، ولكن الظرف والزمان لم يخدماهم. ولأنهم أغراب في الجزيرة العربية فقد كان فشلهم مريعاً، رغم أن المتصرفين في الأحساء كانوا عرباً والى حد ما من ذوي النيات الطيبة، ولكنهم لم يعطوا الفرصة الزمنية الكافية لتحقيق إنجاز. مشكلة المتصرف أو الموظف التركي أنه لا يضمن وظيفته لخمس سنوات، ولو كان ذلك مضموناً لكان حكم الأتراك أفضل، ربما لأن تبديل المناصب السريع ليس فقط لا يساعد على تراكم الخبرة، ولا على وضع سياسات طويلة الأمد فحسب، بل يدفع الموظف الى الفساد المبكّر، حيث يعتبر وظيفته وسيلة لجمع الثروة، أو استعادة المبالغ التي دفعها لشراء منصبه، وذلك عبر الرشوة والفساد والتآمر مع البداة لمهاجمة الحضر ومن ثمّ تقاسم (الغنائم!) كما فعل أحدهم.

وختاماً، فإن ما ورد في كتاب هارسون: العربي في دياره، يستحق عناية خاصة، من قبل مواطني الخليج بشكل خاص، لما له من ملامسة لأوضاعهم. ورغم أنه من الصعب التعاطي مع الكتاب ونشره بالكامل، فقد اخترنا الفصول التي لها علاقة بالواحات في شرق الجزيرة العربية، مع ملاحظة أن الكثير من التحليلات الإقتصادية والإجتماعية تنطبق في بعض المواقع على بلدان خليجية أخرى.

والآن الى النص.



(١)
مجتمع الواحات

في طول الصحراء وعرضها، وحيثما يوجد ماء كاف للري، توجد واحة. واحة الأحساء، هي الأوسع في الجزيرة العربية، وهي عبارة عن شريط وعرٍ من الأرض طوله عشرون ميلاً، وعرضه عشرة أميال. تقع واحة الأحساء على بعد حوالي أربعين ميلاً إلى الداخل في منطقة الأحساء على الساحل الشرقي، وتنتشر فيها الينابيع والبساتين بكثافة. من المحتمل أن حوالي مائة ألف عربي يسكن هناك، ويتمركز نحو ثلاثين ألفاً منهم في العاصمة: الهفوف. أن تكون هناك واحة شيء جميل، حين تبدو ناضرة وخضراء وسط صحراء جافة ومقفرة.

إن تربة الجزيرة العربية، تربة صالحة، وحيثما وجد الماء فأنها تعطي محاصيل حسنة. ففي بعض المناطق كما في الأرض حوالي الرياض، وهي العاصمة للدولة، فإن التربة تعدّ من أجود الأنواع. وحتى عندما تبدو الأرض وكأنها رمل تام، كما في قرية الجهراء قرب الكويت في شمال شرقي الجزيرة العربية، فإنها ما تزال تعطي محاصيل ممتازة من البرسيم إذا سقيت بما فيه الكفاية. لكن مما لا شك فيه، أن

هناك أماكن حيث لا يمكن أن تنمو فيها أية محاصيل، كما في السهل الصخري الأسود الكبير، بين الأحساء والرياض، وكما في كثير من الصحراء الصخرية. ولكن يبدو أنه حيثما وجد ماء، فانه من الممكن زراعة أشجار النخيل والبرسيم، ومعها توجد مستوطنات سكنيّة دائمة في الأقل.

وما عدا الينابيع المتدفقة على امتداد في الأرض المنخفضة القريبة من البحر، فإن جميع الماء يأتي من العيون عملياً. ويبدو أنه توجد ينابيع متدفقة بعيداً في داخل البلاد. هناك ينبوع واحد في واحة الأحساء على بعد حوالي أربعين ميلاً من البحر، يسقي البساتين لعشرة أميال، وفي منبعه يمكن استعمال زورق خفيف عليه، وربما لمسافة ميل. إن التمشّي بموازاة جداول المياه، وهي صافية كالبلور وأزرق تماماً على نحو جميل وكأنه آت من السماء في الأعلى لا من الأرض في الأسفل، درس لإمكانيات الجمال حتى تحت ظروف غير مواتية.

ضفتا الجدول محفوفتان ببساتين النخيل الجميلة، والطريق ممر بين النخيل السامق المهيب. وعلى الجانبين تمتد حقول بعضها باللون الأخضر الغامق الكثيف للبرسيم، وبعضها باللون الفاتح لمحاصيل الأرز. توجد أيضاً بساتين خوخ، وحدائق رمّان، وتين، وأجمات ورود. إنه ممشى جميل حقاً.

مسافة مستوى الماء من سطح الأرض في هذه الواحات يختلف اختلافا كبيراً، وذلك ضمن مسافات قصيرة. ففي الرياض مثلاً، يأتي الماء من الآبار وعمقها حوالي تسعين قدماً. إن هذا التجهيز المائي كاف، ويبدو أنه لا ينقطع حتى في الفصول الجافة، ولو أن مستوى الماء ينخفض في مثل تلك الفصول، ولكن العمل لرفع الماء من عمق

تسعين قدماً، بالوسائل البدائية المتيسرة في الجزيرة العربية، يجعله مستهلكاً لكل منافعه في الزراعة. وكنتيجة لذلك، فان الشيوخ هم الوحيدون الذين لديهم البساتين.. ولأنهم يمتلكون رأس مالٍ كبيراً، فإنهم لا يأبهون بنقص المحاصيل العرضي. إن والد الحاكم الحالي مسؤول عن التصريح القائل أنه لم تظهر خلال نصف السنوات فائدة حقيقية من إدارة بساتين الرياض. على أية حال، فعلى بعد خمسة أميال من الرياض، هناك قرى تستطيع تأمين الماء على عمق عشرين أو ثلاثين قدماً. وكما هو متوقع فإن الزراعة فيها مربحة تماماً. الأرض لهذا الغرض ثمينة، وكل الماء المتيسر يستخدم بعناية.

البساتين في الجزيرة العربية، بالمعايير الغربية صغيرة، والزراعة مكثفة. ومن الناحية العملية فإن في كل بستان غيضة أشجار، وفي ظلها توجد بئر ماء، تجعل الزراعة ممكنة. أما الطريقة التي يرفع بها الماء من البئر فهي طريفة، وهي تستعمل في كل أنحاء الجزيرة العربية، وكذلك في الهند. فحمار أو ثور، أو حتى بعير هو الذي يوفّر الطاقة ويضمن فعالية معتبرة جداً. يُسحب الماء بوعاء جلدي كبير يحمل ماء (جرّة جلدية)، وربما بمقدار ربع وزن الحيوان الساحب. وثمة ترتيب حاذق لحبل ثانٍ مشدود الى قعر الجرّة الجلدية على شكل قمع، يفرغ نفسه تلقائياً حين يتم الوصول إلى مستوى الأرض. وبينما يسحب الحيوان هذه الجرّة الكبيرة من الماء يهبط إلى سطح مائل حفر في الأرض في خندق، ميله ربما بدرجة عشرين، وعندما يصل الحيوان إلى نهاية المسافة في هذا الطريق، تصل الجرّة إلى مستوى الأرض، وأتوماتيكيا تفرغ نفسها، ومن ثمّ تهبط بينما يصعد الحيوان ثانية إلى قمة المنحدر.

غالباً ما تعمل هذه الحيوانات كمجموعات مكونة من أربعة،

وكل جرارها تجلب الماء من البئر نفسها. أما البكرات المرتبطة بالحبال فموضوعة على هيكل في الأعلى، وبما أن كلاً من البكرات والمحاور مصنوعة من الخشب، لذا يمتلئ الهواء بصرير غريب شبه موسيقي، بينما العمل جارٍ. ويمكن لرجل أو صبي واحد أن يشرف على عمل حيوانات كهذه، وكمية المياه التي يمكن أن تسحب نزولاً وصعوداً إلى تلّ منحدر للرجوع مرة أخرى إلى نقطة البداية كمية معتبرة. في الصيف، حينما يكون الماء مطلوباً كثيراً، فإن موسيقى الدواليب المائية يمكن سماعها طيلة الليل، حيث تعمل الحيوانات بنوبات في كل مرحلة، بينما يعمل الرجال ساعات أطول، ونوبة أربع وعشرين ساعة ليست غير معروفة حينما تقتضي الضرورة.

ويقوم الفلاح بالعناية بحيَوانات السقي، إذ من المستحيل تماماً أن يقوم الفلاحون بعملهم بدونها، ما عدا القلّة قرب الساحل حيث تُسقى أراضيهم بالينابيع الجارية التي يُستغنى معها عن هذا العمل الشاقّ المملّ، وفي حالات كهذه، تذهب الأرباح الزائدة على أية حال إلى الرجل الذي يملك الأرض، وليس للرجل الذي يعمل فيها.

إن كل البساتين في القطيف تُروى عملياً من العيون المتدفقة، وما من حاجة لسحب الماء.. أمّا في الأحساء فيجب رفع الماء ربما من عمق ثلاثين قدماً، إلى مستوى البستان. من الصعوبة بمكان رؤية مستويات المعيشة بين المزارعين في المكانين مختلفة، على الرغم من أن بساتين القطيف أثمن بدرجة كبيرة جداً وتعود على مالكيها بدخل أكبر.

وما دام الماء يشكّل الشيء الأهم المتصل بالزراعة، لذا فانه يستعمل بعناية كبيرة.. فالبستان مُحدّد بمهارة، وقد أُقيمت ساقية

صغـيرة إلى جـذور كل نخلـة وإلى كلّ مربع في الحقـل. ويحيط خندق صغـير بـكل نخلـة. قـد يـزرع النخـل بصفـوف منتظمـة، والمـماشي والممرات الناتجة عن ذلك جميلة جداً. تختلف مربعات الحقل في الحجم مع مسـتوى الأرض، وهي منفصلة عن بعضها بسـواقي صغيرة، ربما يصـل ارتفاعها إلى سـت بوصات. وهي صغـيرة حينما تكون الأرض منحـدرة، وقـد تكـون واسـعة جـداً، حينما تكـون الأرض مسـتوية. وتتطلـب المحاصيـل المختلفة كميات مختلفة من المـاء وجميعها يتطلب مـاء أكثر في الصيـف الحار من الربيع والشـتاء الباردين، مع أن كمية المـاء الضرورية كبيرة في كل الأوقات، ويبـدو العمل وكأنه لا يتوقف مطلقـاً، في البسـاتين الأفضل. ثمة مسـعى لنقل الماء في مجارٍ إسـمنتية لتفـادي تبديده، وقد ينتقل بهذه الطريقة إلى أميال عدة.. ولكن لم تُعط هـذه الناحية، على أية حال، ما تسـتحقه من اهتـمام، وما من شيء أكثر رداءة مـن رؤية تبديد ماء في مجرى رملي طويل، عندما تكون كل قطرة ضرورية حقاً.

المحصـول الوحيد الشـائع في الواحات ـ الأحسـاء والقطيف ـ هـو التمور، والإعتنـاء بالنخيل هي خير ما يعرفـه المزارعون العرب. ثبـت إنه يمكن إعالة عدد من البشر مـن ناتج فدان نخيل واحد، أكثر من أي محصول آخر يمكن زراعته في الجزيرة العربية. هناك أنواع كثيرة من التمور، وللعرب إسـم مختلف لكل مرحلة من تطوّر نمّو الثمرة.. حقاً، إن الطالب يُعلم بأن هناك خمسمائة نوع مختلف من التمور في اللغة العربية. إن النخلة تعطي الغذاء وأكثر من الغذاء بكثير، إذ يُشـيَّد بيت القروي منها، كما أنها وقوده الرئيسي. وتصنع الحصران من سعفها، كما وتُصنع الأسرّة والأثاث من خشـبها. وهكذا فأنها تجهّز الناس بالمأوى والطعام، والأثـاث والوقود، وتقريباً كل شيء، اللهم إلاّ الملابس. إن

الحياة في الواحة تتمحور حول النخيل، تماماً كما تتمحور الحياة في الصحراء حول الجمل.

إن العمليات المختلفة في زراعة النخيل، تتطلب نواحي اهتمام كثيرة.. فالتربة في الربيع يجب أن تحرث، إنها تُحرث إذا كانت هناك مساحة كافية غير مثقلة بالأشجار، حتى تكون الحراثة ممكنة. والمحاريث المستعملة لا أكثر من عصيّ منحنية، والتأثير الناتج في سطح الأرض هو مثلما نعرف على أنه سحو التربة. وهناك السماد الذي يُشترى وينشر في الحقول والبساتين، وهذه مسألة مهمة للغاية في الأحساء وفي مستوطنات الواحات الأخرى الأكثر قدماً. إن السماد في بساتين ما بين الرافدين، أقلّ أهمية لأن التربة هناك عميقة جداً، وخصوبتها لا تنفد في الغالب. وعلى الرغم من أن الإمداد المائي في الواحة جيّد عادة، إلا أن التربة فقيرة.

السماد بضاعة مكنوزة بعناية ويباع حمل الحمار منها بدولار. يشتمل عمل الربيع، ليس مجرد تهيئة التربة وتسميدها بالسماد، فحسب، بل ويشمل تشذيب الأشجار وبذر محاصيل مختلفة، بقدر ما يمكن أن يقدّمه بستان. السعف اليابس القديم يجب أن يُقطع في الربيع من أشجار النخيل، ولا يترك إلاّ السعف الأخضر الطري مما نما في فصل واحد. ومن عصيّ السعف يصنع مزارع النخيل مأوى مدهشاً، قوياً وفعّالاً، ويمكن أن يعمّر الواحد منها لعشر سنوات قادمة. في آخر الفصل يُقطع ذلك السعف من الجذع، تاركاً شكلاً جميلاً للنخلة، ويصبح السعف المقطوع مادة الوقود الرئيسية في المجتمع. هذا الوقود خفيف، إلا أنه مرضٍ باطراد، لأغراض الطبخ، وذلك هو الغرض الوحيد الذي لأجله يستعمل العرب كثيراً من الوقود. من جهة

أخرى، يمكن أن تعيش النخلة خمسين أو مائة سنة، وأخيراً تموت، فيباع جذعها كخشب. من الصعوبة تصوّر خشب ملائم لأغراض البناء، أو الوقود، أكثر من خشب جذع النخلة المساميّ الليّن.. إلاّ أن عوارض البيوت تُصنع منه عادة وكذلك الجسور الصغيرة فوق قنوات الري (جصّة)، وليس هناك من شيء آخر، فهو الخشب الشائع الاستعمال في المجتمع.

في بداية الربيع يبدأ ظهور طلع النخيل من القراب التي يبلغ طولها عدّة أقدام. على المزارع أن يجلب لقاحاً من النخل الذكر (فحّال) ويهزّ حبوب اللقاح على طلع النخلة الأنثى. يخطط كل فلاح عادة لاقتناء شجرة أو شجرتين من النخل الذكر، لتجهيز اللقاح، فإذا لم توجد لديه شجرة نخيل ذكر ـ فحّال، فعليه أن يشتري من هؤلاء الذين يمتلكون. إن عملية التلقيح (التنبيت) لأشجار النخل عملية شاقة تماماً، وتستغرق عدة أيام، وبعد إكمالها يشدّ عذق النخلة الصغير بعناية حتى تتدلى العذوق التي تكبر إلى الأسفل بصورة ملائمة بين السعف الطويل، وحتى يكون من السهل قطفه حينما ينضج. من الضروري في بعض المناطق تغليف الطلع بعد تلقيحه، وكذلك الأمر بالنسبة للخلال الأخضر الصغير (الحبمبو) بأكياس، أو بليف ناعم لحمايته من الشمس والريح.

في هذه الفترة يكون ريّ البساتين مستمراً بلا انقطاع، فثمرة التمر تنمو وبعد ثلاثة أشهر تنضج الأنواع المبكرة. للعرب أنواع مبكرة من النخيل، وأخرى متأخرة. فالمبكرة تدعى تمور «التسعين يوماً»، وهذا الاسم يشير إلى الوقت الذي تستغرقه العملية من الإزهار وحتى نضوج التمر.

وفي منطقة القطيف ثمة تجارة كبيرة بما يعرف بالـ (سلوق). وهذا ثمر جاف حلو بصورة مدهشة، وهو يباع في الهند وفي أماكن أخرى بأسعار عالية كنوع من الحلوى. لصناعة السلوق يتم قطف أنواع معينة من التمور وهي ما تزال صلبة حمراء.. إنها بكامل حجمها وحلوة المذاق، إلاّ أنه لم يحن وقت أكلها لأنها خشبية خشنة وغير ملائمة. وبعد غليها لدقائق قليلة، تجفف تحت الشمس فتصبح سلوقاً مجففاً. إن موسم (السلوق) في القطيف مثير، حيث القدور الكبيرة تغلي في كل مكان، والنيران تمدّ بالوقود لتبقى كبيرة مشتعلة تحتها. وفي هذا الموسم يكون الإقبال على الوقود كبيراً، وجذوع النخل مسعّرة لهذا الغرض على وجه الخصوص. حينما تجلب العذوق التي ما تزال حمراء على ظهور الحمير، توضع ربما لمدة خمس دقائق في الماء المغلي، ومن ثمّ تُخرج، وتنقل إلى سقيفة مرتّبة ترتيباً ملائماً، وتجفف بعناية. إنه عمل إضافي كبير، إلا أن السعر الذي يُدفع للتمور التي تُصنع بتلك الطريقة، أكبر من العمل الإضافي.

بالنسبة للرطب (التمور الناضجة) فهو يؤكل حالما ينضج، إلا أن التمور الطرية لا يمكن أن تبقي طرية طيلة السنة، والقليل منها يُشحن للخارج. وبناء على ذلك فهؤلاء الذين لا يرغبون في الاستهلاك الفوري، يتركون التمور تجف على العذوق، وبعد بضعة أسابيع حينما تجف بما فيه الكفاية، تُقطع وتنقل إلى موقع في الحقل لتوظيبها وخزنها (الصرام والكناز). ففي ذلك المكان يوظّب التمر في صناديق خشبية باتت مألوفة لدى الأمريكيين. أما في الواحات الصغيرة فإنها لا توضع في صناديق خشبية، إذ ليست هناك من نية لتصديرها إلى أمريكا أو إنجلترا. والتمور المخصصة للاستهلاك المحلي، في الجزيرة العربية

توضع في أكياس جلدية (قرب) أو في صفائح كيروسين قديمة كانت قبل ذلك قد استعملت لنقل الماء لسنوات كثيرة قبل أن تصل نهايتها الأخيرة من خدمتها الممكنة.

البرسيم هو المحصول الأخر الوحيد المهم بعد التمور، وهو يقطع كل ستة أسابيع طيلة أيام السنة، ومما لا جدال فيه أن غلته جيدة جداً في العادة. أما المحاصيل الأخرى فتعتبر أمراً كمالياً طارئاً. يمكن زراعة الرمان إذا وجد له المكان والماء، وكذلك أنواع عدة من الليمون البلدي، ويمكن زراعة أشجار التين والخوخ. وحتى العنب يمكن زراعته، ولكن لسبب ما، لا يبدو أنه غير مرغوب فيه. وبإمكان الأغنياء أن ينعموا بأنواع مختلفة من الفواكه والخضر في موسمها، ومن بينها: اليقطين، والباذنجان، والبامية والبصل. وقد زُرعت مؤخراً الطماطم المجلوبة من الغرب، وهي تزداد رواجاً، كما ويزرع في الواحات نوع متواضع من البطيخ الأصفر وهو ينمو بصورة حسنة. كل هذه الأنواع تُزرع وتسوّق يدوياً. إن الزراعة المكثفة شديدة الحرص يجب أن تكون الطريقة السائدة في مجتمع كهذا، فدّاناته صغيرة المساحة ومزدحم بالسكان. تُسقى التربة وتحرث يدوياً، وكل أعمال الزراعة التالية تتم بنفس الطريقة. لا يوجد إلا مكان صغير للمكننة الزراعية.

ولكن.. لماذا لم تتوسع المساحة الزراعية؟. إن قرب كل واحة تقريباً وفرة من الأراضي الزراعية الممتازة، التي يمكن استغلالها إذا ما تيسر لها الماء. وهناك مسعى متواصل تقريباً لاكتشاف آبار مائية جديدة لزيادة حجم الواحات، وبين الحين والأخر تنجح تلك المساعي. وهناك أيضاً مناطق يمكن زراعتها، بعيداً عن المستوطنات السكنية الدائمة، أو في الأقل كذا يقول العرب، غير أن لا اكتراث

البدو بالعمل اليدوي، يجعل أمر تأسيس واحات جديدة صعباً.

على أن دخول مكائن النفط الخام مؤخراً وفّر حافزاً لزيادة كفاءة الضخّ بالقدر الذي يجعل أمر تأسيس بساتين كبيرة أمراً ممكناً. يحاول الحاكم الحالي إنجاح هذه التجربة، ولكن من غير المحتمل أن تفيده مادياً. إن لمعظم الآبار المائية طاقة إنتاج معينة في اليوم الواحد، ومن السهولة بلوغها، ومن الممكن إخراج كل الماء الذي بمقدورها أن تعطيه، بالطريقة العربية بالدلاء الجلدية والحمير. ويجلب النفط الخام من مسافة كبيرة، ومن المشكوك فيه أنه ستوجد فائدة كافية بحيث تؤدي إلى استعماله الدائم. جرت محاولة مؤخراً للاستفادة من طواحين الهواء، وهي تجربة واعدة أكثر، راقبها الشيوخ باهتمام كبير.

إن اكبر فئة/ طبقة في الواحات، هم والى حدّ بعيد مزارعو النخيل، الذين يعيشون في المدينة، ويخرجون إلى عملهم كلّ صباح، فالمسافة قصيرة، وهم لا يفكرون في السكن ببيوت معزولة في البساتين (بيوت الحقل). ويعمل الفلاح ضمن شروط صعبة ومجحفة. فالعقود مع مالك البستان مدتها سنة واحدة فقط، وفي نهاية ذلك الوقت يجب أن يُجدد العقد، وقبل ذلك عليه أن يدفع للمالك ليس نسبة معينة من المحصول، وإنما عدداً معين من تنكات أو قلال أو صناديق التمور الخشبية. بالإضافة إلى ذلك يجب على المزارع أن ينتج كمية معينة من البرسيم إذا ما زرع هذه الغلة، ومن الخضر والفواكه المنوعة الأخرى المزروعة في البستان. وهكذا فعنصر المخاطرة لا يتحملها إلاّ البستاني وحده. إن سنة جيدة تجلب معها فوائد غير اعتيادية، وهي لا تجعل البستاني على أية حال سعيداً، كما يمكن أن تتوقع منه، لأن واحداً من نتائج تلك السنة الخصيبة سيكون زيادة الإيجار (الضمان) للسنة

التالية، ويخشى الفلاح من أنه قد يفقد في المستقبل، كل ما حصل عليه في الوقت الحاضر.

علاوة على ذلك، يبدو أن هناك تنافساً كبيراً بين المزارعين لاستئجار النخيل (ضمانها)، مما يجعل الإيجارات عالية والأجور واطئة. إن الإيجار يبقي بانتظام عالياً الى حدّ تكلفة الإنتاج نفسها.. حتى عذوق التمر الجافة (العسو) والكَرَبْ خاضعة للحساب والمفاصلة في عملية الضمان. غير انه لا يوجد تنافس بين المالكين رغم أن مساحة الأرض المتيسرة في أية واحة محدودة بالطبع. إن اكتشاف آبار مائية جديدة وسّع حدود الواحات، ولكن ببطء وعدم ثقة شديدين، في حين أن على باقي السكان أن يفتشوا عن عمل ورزق في مناطق أخرى، وتحت وطأة هذه الظروف، فمن الطبيعي أن يكون مالكو البساتين قادرين على جعل أجر المزارعين منخفضة جدّاً.

في الواقع إن المزارعين، على أية حال، لا يتضورون جوعاً، وليسوا قريبين من ذلك. فعلى الرغم من أن المالكين يقدرون بلا شك على إنزالهم إلى مستوى كفاف العيش، إلاّ أنهم لا يصرّون على مصلحتهم في حدّها الأقصى. حينما تأتي سنة خير غير عادية، فالمزارعون يجنون الفوائد، بينما حينما تأتي سنة عجفاء فوق العادة فإن عقودهم وبشكل دائم تقريباً يتم تعديلها ليتناسب مع المستجدات. في سنة كهذه، فان العدد المتعاقد عليه من قلال التمور، لا يمكن تسليمه إلاّ باقتراض المال لشرائها من السوق الحرة بسعر عالٍ وقد يُعلن المزارع إفلاسه من جراء احتياج كهذا. ومن المشكوك فيه أنه سيجد من يقرضه المال لهذا الشراء.

لذا ففي حالة إخفاق الغلّة إخفاقاً تاماً تقريباً، يذهب المزارع إلى

المالك ويطلب منه أن يعفيه من نسبة معينة من الالتزام بالعقد. غير أن المالـك قـد لا يرغب دائـماً في منحه تلك الهبة، فـإذا لم يوافق على طلب المـزارع، فان القضية تحال إلى الحاكم الذي ينظر فيها عادة بحيث يجب ألاّ تُنفـذ شروطهـا التي تـؤدي إلى الجوع. وفي هذا الحـلّ، يجد الحاكم دعـماً غير محدود من المواطنـين ككل. إن من واجب الحاكم في الجزيرة العربية، تعديل العقود والاتفاقات، التي ينتج عنها الظلم والمعاناة.

وتوجـد قـوة كامنة أكثـر فعالية أيضـاً لإبقـاء شروط العقود بين المالـك والمـزارع في مستوى يضمـن الحياة المريحـة. يقضي المالـك وقتاً قليلاً في بسـتانه، لكنّ البسـتان ملك ثمين للغاية. وحتى لو كانت أرضاً جـرداء، فـإن قيمتها عالية مع حقوقها في المـاء، على الرغم من أنه ما من أرض زراعيـة نافعـة تترك جرداء، لأن الأرض الصالحـة للزراعة نادرة ولا يمكـن التفريـط بها.. فهي دائماً قيد الاسـتعمال بصيغـة أو بأخرى. وكنتيجة لذلك، فإن سعرها يكمن أساساً بنخيلها، وبنظام ريّها المتطور، وبالاسـتصلاحات الثابتـة المنوعـة في البسـتان مثل الحيطان والأسـوار والبيـوت التـي تحتويها. إن هذه الاسـتصلاحات تكلّف غاليـاً، إلا أنها تتطلب القليل لصيانتها، لذا فالأنفاق عليها ليس كبيراً، والفلاح الكفء يحافـظ عليهـا في حالـة صالحـة، وببراعته سـتزداد قيمة البسـتان.. فهو سـيقوم باستصلاح التربة وتسـميدها بعناية، كما سيحسّن نظام الري.. سيزيح كل شجرة عديمة الفائدة، وبالضرورة، فإن فسيلة جديدة كانت قد زُرعت من قبل سـنوات بالقرب من جـذع النخلة القديمة، حتى لا تظهـر مناطـق خالية في البسـتان. سـيعتني الفلاح عناية فائقة بأشـجار النخيل، وسينمّي المحاصيل الأخرى التي تعود عليه بالربح.

ومـن الحقائـق في الجزيرة العربيـة الآن، تماماً كـما في بقية أنحاء

العالم، أن المزارعين نصف الجوعى المستائين، هم ليسوا أفضل المستأجرين.. وإن سعر البستان سيهبط على يد مثل هؤلاء. النتيجة أن مستوى الإيجار يقدّر بطريقة تسمح للمزارع لأن يكون له سكن يقيه من تقلبات الطقس، ووفرة من الطعام، وملابس ملائمة. إن المزارع في الواحة معتدل الإرتياح، وقادر في أيام الأعياد أن يظهر بمظهر محترم. بالتأكيد، توجد تباينات بين الأفراد، وهو شيء متوقع. بعضهم كسولون وعلى حافة الجوع، وبعضهم ميسورو الحال بصورة مدهشة، لدرجة أنهم يمتلكون مقادير صغيرة من المال ادخروها، وربما أقرضوها بالفائدة. ويتساءل المرء هل سيبلغ هؤلاء درجة شراء بساتين خاصة بهم. قد يحدث شيء كهذا، ولكني لم أسمع عنه البتة.

إن أساس الحياة الاقتصادية في الواحة نفسها هو زراعة النخيل والبرسيم.. بيد أن الواحة ليست وحدة منفصلة بحّد ذاتها، فهي جزء من الصحراء، وإن كانت بلا شك مركز الحياة الصحراوية. وحتى مجتمع بدائي كالبدو يحتاج إلى خدمات الصنّاع والتجار، وهؤلاء لا وجود لهم في الصحراء مع القبائل، فهم يسكنون الواحات، وإذا ما قورنت الواحات بالصحراء، فان في الأولى حياة إجتماعية ونظاماً، وهما أقرب ما يكونان إلى حياتنا ونظامنا الاجتماعيين في بلادنا ـ أميركا، إذ لم يعد للرجال نفس العمل، ويعتنقون نفس الأفكار ويعيشون نفس الحياة. لقد ظهر تقسيم في العمل، وهو كثير الشبه بما نراه في جميع العالم، وتقسيم المجتمع إلى طبقات نتيجة حتمية.

تأتي بعد المزارعين من حيث الحجم، أهم فئة في مجتمع الواحات (الأحسائية والقطيفية) وهم يتكونون من الصنّاع. وعلى الرغم من أن مكائن بسيطة هي قيد الاستعمال، فإن معظم فئة الصناع عمال

يدويـون، بكل ما في الكلمة من معنـى محدود. إنها نفس الصناعة التي كانـت في أوروبا قبل عصر الآلة البخاريـة ومكائن الطاقة. لقد رأيت معملاً في الأحسـاء، كان يشـتغل فيه بين اثني عشر إلى أربعة وعشرين حائـكاً يدوياً يعملون، أجور الواحد فيهم تـتراوح بين اثنتين ونصف وأربـع روبيات في اليوم، اعتماداً على مقـدار العمل الذي يصنعه، بينما يبيع رب العمل المنتوج بأكبر قدر يمكنه منه تحقيق الربح.

أمـا أكبر وأفضـل صناعة منظمـة، فهي الصناعة التـي يقوم بها الحائكـون، الذيـن يصنعـون العبـاءات وهـي تلبـس في كل مكان في الجزيرة العربية. إن غزل الخيط الذي يسـتعمله الحائكون صناعة بيتيه في جميـع أنحاء شـبه الجزيرة العربية. لا شيء أبسـط مـن المغزل، مجرد عصا صغيرة مع خطاف في إحدى النهايتين حيث يعمل كفلكة المغزل الـذي يدوّر بدقة وإتقـان، وهو معلّق باليد بخيط طولـه قدم أو أكثر. وفي أثنـاء دوران المغـزل، يوضـع الصوف بعناية في قمـة الخيط، وبينما يُفتـل الصوف ليصبح خيطاً، يوضع صوف أكثر. وحالما يصبح الخيط طويلاً بصورة غير مريحة، يلفّ على المغزل، وهكذا دواليك.

وعـلى هذا فالخيـط المغزول قد يكون خشـناً أو قد يكـون ناعماً بصـورة تبعـث عـلى الدهشـة. انـه يصبـغ في بعـض الأحيـان، إلاّ أن الألـوان الثلاثة المعتادة هي، الأبيض والأسـود والبنيّ، ويمكن تأمين هـذه الألوان عن طريق اختيار الأصواف الطبيعيّة لهذه الألوان. هناك دائماً سـوق لهذا الغزل، فـكل امرأة بدوية، حينما لا يكون لديها شـغل آخر، تغزل، وكذلك كل رجل مسـنّ عاجز. إنهـا الطريقة التي يمكن بواسطتها كسب الفلس الشريف.

يشـتري الحائكون الدرجات المختلفة مـن الغزل المغزول محلياً،

ويستوردون كذلك أصنافاً ناعمة خصيصاً من إيران حيث الناس هناك حرفيون أفضل من البدو. حتى خيوط الغزل الإيرانية ليست ناعمة بما فيه الكفاية لبعض منسوجاتهم، وأنعم (أدق) خيوط الغزل تستورد من إنجلترا. لا توجد تجارة مباشرة مع إنجلترا، ولكنّ كثيراً من التجار المحليين يذهبون إلى بومباي ويشترون الأنواع الأكثر نعومة من خيوط الغزل الإنجليزية.

هذه الصناعة هي أفضل صناعة منظمة من أية صناعة أخرى في الأحساء. إن أنوال الحائكين، آلات بارعة كل البراعة.. إضافة الى هذا هناك نظام عمل، ويقوم الرجال بالاشتغال الفعلي على هذه الأنوال، وتُدفع لهم الأجور مقابل القطعة وليس حسب الساعة أو اليوم، أما المكائن وكذلك الفوائد فهي تعود إلى المالك، الذي من نافلة القول أنه الأغنى بين المجموعة في المعمل على الرغم من أنه قد يقوم هو نفسه بالعمل بين فترة وأخرى. وقد يقام إثنا عشر، أو أربعة وعشرون نولاً في فناء دار واحد، وكل واحد مخصص إلى ماكنة معينة. وظروف العمل طبيعية فالهواء والضوء متوفران، وبإمكان الحائكين العمل حسب رغبتهم لساعات تطول أو تقصر.. أما الأجور المدفوعة، فتضع الحائك في مستوى أعلى من المتوسط، بالمقارنة إلى الصناع الآخرين. إن جوّ الارتياح، وتوزيع الرخاء عامة، يبعثان على الرضا تماماً بينهم.

الخياطون هم المجموعة الصناعية الكبيرة التالية في مدن واحتي الأحساء والقطيف. إنهم ليسوا منظمين مثل الحائكين، ونظام العمل أقلّ تطوراً، كما أنهم يشتغلون في غرف كبيرة، يصل عددهم في بعض الأحيان من عشرين إلى خمسين شخصاً، في الغرفة الواحدة. بعضهم مستخدمون لدى المالك، إلاّ أن في هذه الصناعة قدراً كبيراً من التزامل

الودّي بين العاملين المتجانسين، وتختلف شروط العمل من مؤسسة إلى أخرى، إذ يقوم معظم العمل على أساس فردي تقريباً.

تفصيل الثوب العربي عملية بسيطة، فالأردية التي يلبسها العرب لا يُقصد منها أن تلتصق بالجسم، أما الملابس الداخلية فهي أشبه ما تكون بثياب نوم ضخمة غير مفصلة على القياس، أما العباءة الخارجية فما تزال، عبارة عن رداء منسدل. وكما قد يتصوره المرء أنها مجرد قطعتين من القماش مساحتها ستة أقدام مربعة، تمت خياطتها معاً من الأعلى والجانبين، مع ترك فجوة في الشقّ الأعلى للرأس، وتترك الزاويتان العلويتان مفتوحتين للذراعين. ولتحويل رداء كهذا إلى عباءة عربية سيكون من الضروري، فتحها من الأعلى إلى الأسفل من الأمام. تعرف هذه العباءات في جنوب الجزيرة العربية باسم (بشت)، وهي بالطبع لا تصنع بالطريقة التي وصفناها. فلصنع عباءة تستعمل قطعتان طويلتان عرض كل واحدة منهما ثلاثة أقدام، بحيث توضع القطعتان في مكانهما وتخاطان معاً، ومن الأفضل إطلاق اسم مطرّزين بدلاً من الخياطين، لأن حافات العباءة يجب أن تطرّز بخيوط ذهبية وقرمزية، ويجب أن تزخرف الياقة بتطريز فوق شريط، ربما بعرض بوصتين. ولا يزداد سعر العباءة إلاّ بقدر ما فيها من تطريز، لكن هناك رجال دين في غير الواحات من يحرّم ارتداء عباءات مطرزة بخيوط من الذهب، أو مصنوعة من الحرير، لذا فإن أكر العباءات الملبوسة في وسط الجزيرة العربية متواضعة.

النّحاسون مجموعة كبيرة في كل مدن الواحات. إنهم صناع مهرة، وبعضهم فنانون حقيقيون، يصنعون بشكل أساس دلال القهوة وأدوات المطبخ الأخرى. إن صنع القهوة في الجزيرة العربية، عمل

متقن، وكل صاحب بيت ذي شأن لديه مجموعة من دلال القهوة قد يبلغ عددها عشراً أو اثنتي عشرة دله.. ثلاث منها على الأقل يجب أن تستخدم لصنع القهوة بصورة ملائمة. تختلف أنماط المناطق اختلافاً كبيراً، والأفراد يفتخرون بما لديهم من مجموعة فنية حقيقية من دلال القهوة. النموذج المفضّل عموماً منها، هو ما جاء من القسطنطينية ودمشق بصورة خاصة، ليس فقط لتميّزها من حيث الشكل، وهو رشيق بصورة خاصة، ولكن لأن تلك الدلال مصنوعة من نحاس مسبوك، وسطحه يلمع لمعاناً جميلاً جداً.

ولدلال القهوة الاحسائية، شكل قصير وثخين مع غطاء أثقل.. وهي فنيّة بالمثل بقدر ما يتعلق الأمر بالشكل، غير أنها مصنوعة من صفائح نحاسية، تُطرق للحصول على الشكل المطلوب، ومن ثم تُبرد بمبرد وتصقل، لكن ليس فيها لمعان إنتاج دمشق.

تُصنع أواني الطبخ وأباريق الشاي كذلك من قبل النحاسين الأحسائيين والقطيفيين، وبعض تلك الأواني والأباريق يصنع بأحجام كبيرة جداً لاستعمال الشيوخ. ففي القدور الأكبر حجماً يمكن طهو خروف بكامله مرة واحدة، لكن معظم أواني الطبخ، على أية حال، مصنوعة لعامة البيوت، وهي ذات حجم معتدل.

النحاس ينقل الحرارة بصورة جيدّة ويمكن التعاطي معه بسهولة.. أما الحديد فلم يشعْ استعماله لهذا الغرض في الجزيرة العربية، ربما لأن تسخينه أصعب بكثير. كان من المستحيل تقريباً، الحصول على صفائح النحاس والصفر أثناء الحرب (العالمية الأولى)، وقد شعر الصناع بالحاجة إليها بشدة تماماً، ولكن دخلت في الآونة الأخيرة أدوات مصنوعة من الألومنيوم، وعلى الرغم من أنها تبدو



أقـل متانة وتحملاً مـن الأدوات المصنوعة من النحاس، إلاّ أن نظافتها وأشكالها المريحة جعلتها رائجة لدى أبناء المدن.

ومن بين الصناع في الواحات أيضاً، الحدّادون، الذين يصنعون المسـامير المسـتعملة في بناء السـفن على السـاحل، وفي بناء البيوت في داخـل البلـد. تُطرق هذه المسـامير بجهد مرهق، مـن قضبان حديدية تسـتورد مـن بومباي. إنها مسـامير غالية، ولكنها بالنسـبة للسـفن لا يمكن الاسـتغناء عنها، لأنها تقاوم تأثير المـاء المالح، وهي بهذا أفضل بكثير من المسـامير المسـتوردة. وهناك أيضاً عدد قليل من المشتغلين في النجارة، وهم يصنعون الأثـاث للبيوت، والأرائك، والهياكل لتثبيت جـرار الماء عليها، وسروج الجمال، وما إلى ذلك. هؤلاء النجارون، كما يمكن تسميتهم، لا علاقة لهم ببناء البيوت، لأن ما من بيت في الجزيرة العربية يُبنى من الخشب، وأكثر ما يمكن أن يعمله النجار هو المساعدة في إنهاء الصورة الداخلية للبيت وتجهيز الأبواب والشبابيك.

يبـدو أن كل هـؤلاء الصنـاع، ينعمـون بدخـل معتـدل مريح. طعامهم كافٍ، وبيوتهم مسـاكن صالحة تقيهم من البرد والحرّ والمطر، ويسـتخدمون ملابس ملائمة. والظاهر أن فئة الصناع ككل يعيشـون بنفس مستويات المعيشة لمزارعي النخيل، وهذا شيء متوقع بلا شك، لأن فئة المزارعين هم الفئة الغالبة، وأي نسبة في الأجور تقلّ كثيراً عن أجورهم، ستدفع الرجال ببساطة إلى ترك مهنهم، واحتراف العمل في البساتين حيث الأجور أعلى.

في جميـع الواحات، هناك تجار جادّون في عملهم، يشـترون من البـدو الأشـياء القليلة التي يجـب عليهم أن يبيعوهـا: بعض الخراف، وقليلاً من الزبد المصفي، وبعض الصوف، وقليلاً من الجلود، ويمكن

أن يضاف إلى ذلك في الموسم الجديد، شراء كميات كبيرة من الجراد المحمّص، وكمية صغيرة من الجبن المجفف الصلب المصنوعة من حليب النوق (الإقط؟). والسوق في مدينة عربية مكان مزدحم ومشعّ بالالوان.. فالتاجر، من جانبه، يبيع إلى البدو السلع التي يستطيعون شراءها: كمية صغيرة من الملابس الأجنبية، والكيروسين، ربما استورد من أمريكا، وبعض الحلي المبهرجة للزينة الشخصية، وربما حتى شراء فانوس. بالإضافة إلى ذلك، فهناك المصنّعات المحليّة، وأعمال الصناع المختلفين ـ وأهم من ذلك جميعاً، تمور لكل شخص يمتلك مالاً للشراء. وهناك الأرزّ من الهند أيضاً، والحنطة من إيران، ولكنّ هاتين المادتين تباعان للأشخاص الميسورين مثل الشيوخ والوكلاء. وتوجد حتى الكتب، ومعظمها دينية، لكل من يريد شراءها، ولكن البدو لا يشترونها أو يشترون قليلاً منها. أيضاً، توجد محلات العطارين في كل سوق كبير الحجم. أما العطر الزيتيّ المركز، وهو ما يعجب العرب كثيراً، فهو واحد من السلع الرئيسية في المكان. إن الزائر الغربي ينظر، بشعور قريب إلى الرعب إلى القنينة الصغيرة التي يجلبها إليه مضيّفه في نهاية الزيارة. ومن سوء الخلق تماماً عدم قبول هذا التكريم الممنوح بكرم، وعدم مسح شعر الرأس والشاربين واللحية، بالإضافة إلى الملابس بهذا العطر النفّاذ، الذي يصنع هالة عطر حول المرء تستمر لمدة أربع وعشرين، وقد تتطلب كثيراً من الغسل لإزالتها.

كثير من التجار الصغار في السوق، مجرد وكلاء لبعض الأفراد الذين لديهم شيء ما لبيعه. أن نسبة تبعث على الدهشة من التجارة في السوق العربية، يقوم بها هؤلاء البائعون المتجولون. إنهم ينتمون إلى فئة العمال أكثر من انتمائهم إلى فئة التجار، وساعات عملهم طويلة،

بينما ما يكسبونه قليل. وعلاوة على كل هؤلاء، هناك عدد من العمال العموميين، وهم الحمّالون أو العتالون في السوق ويشتغلون في حفر الخنادق أو في أي عمل لا يتطلب مهارة.

الممثلون الوحيدون لما نعرف عن الفئات الحرفية، هم معلّمو الدين المختلفون. هؤلاء الرجال يُدربون على الدوام في المدارس الإسلامية الدينية لسنوات طويلة قبل أن يقوموا بواجباتهم الدينية. إنهم واعظون في المساجد، ويقومون بمقام مرشدين في مسائل الدين. تكون للمشهورين، بينهم، مدارس دينية لإرشاد الصبيان الذين يتطلعون إلى وظائف دينية.. وعملهم الأساسي، على أية حال، هو ما نعتبره (في الغرب) عملاً سياسياً. فهم وسطاء في النزاعات والدعاوى القضائية الصغيرة التي تنشأ بين المواطنين، ولهذا السبب فهم يتمتعون بنفوذ كبير. ليس هناك من مكان في الديانة الإسلامية، لممارسة ما نفهمه على أنه وظائف مرشد روحي، أو راعي أبرشية، وأقل من ذلك بكثير وظائف كاهن.

هناك مجموعة صغيرة من مالكي الأرض والتجار (نفس الفرد قد يكون الاثنين في أغلب الأحيان)، يشكّلون الطبقة العليا الغنيّة، ولهم سلطة كبيرة في المجتمع، كما يشكلون نوعاً من المجلس الاستشاري غير الرسمي للحاكم، وما من شيء كبير يحدث بدون معرفتهم ورضاهم. على أية حال، إنهم ليسوا شيوخاً، وفي بعض الأحيان، حينما يترأس حاكم قوي جماعة، فإن مجلس الأغنياء هذا لا يمارس إلا القليل من التأثير. أما الحاكم وعائلته فيشكلون ما يمكن أن يدعى طبقة بحدّ ذاتهم، فهم في أغلب الأحيان غرباء انحدروا إلى حد ما، من إحدى القبائل البدوية، وهم أقلّ أسفاراً وأقلّ رفعة من كثير

من تابعيهم الأغنياء. على أية حال، إنهم مع ذلك حكام ذوو نفوذ، ولكن موضوع مهمات الحكومة عند العرب، هو أحد الموضوعات التي يجب أن ننظر فيها فيما بعد.

الصحراء والواحة يمثلان في الجزيرة العربية أسلوبين متعارضين في الحياة، وبين من يحياهما تعاطف قليل. فالمدينة، بالنسبة إلى البدوي مجرد مجتمع أسياد وعبيد، والغالبية العظمي عبيد. فالبستاني من وجهة نظره يشتغل ساعات أطول وأصعب، وأكثر من ذلك، يشتغل تحت إمرة شخص آخر، يتسلّم القسم الأكبر من العائدات. الصانع الماهر من غير ريب ليس عبداً لأيّ فرد بعينه، ولكنه هو أيضاً محصورٌ في نطاق ضيق، وحاجيات عائلته تجعله مشغولاً من الصباح إلى المساء، وهو يشتغل بيديه. والبدوي يحسد مالكي الأرض والتجار، ولكنه يرثي لهم حياتهم المزدحمة ومناطقهم الضيقة في المدينة. لماذا يفضل شخص غني بما فيه الكفاية ويستطيع أن يوفر مسكناً في الصحراء، أن يعيش في الواحة، ذلك لغز لا يحل بالنسبة إلى البدوي.

وإذا كان البدوي يحتقر إبن المدينة احتقاراً كبيراً، فإن إبن المدينة من جانبه يبادله الاحتقار بحرارة. إنه يعتبر بدوي الصحراء غير النظيف والأشعث أفضل قليلاً من حيوان متوحش. الشيء بالشيء يذكر، إنه يخاف من تطرّفه الديني المتهّور، وله أسبابه. وصف أحد البدو بقّالاً صغيراً في الأحساء بأنه كافر لأنه كان يدخن النارجيلة عند باب محلّه التجاري. قال له: (أيّها الكافر هل سأكسرها على رأسك، أو أهشّمها هنا على الأرض؟).. وحين أشار البقّال إلى تفضيله لأن تُهشّم على الأرض، قام ... المتطرف بكسر النارجيلة على الأرض، فالتبغ بالنسبة له أسّ الإثم والنجاسة. النارجيلة أداة غالية جداً لأنها

جرّة زجاجية مزخرفة بربع حجمها. يصرّ هؤلاء الذين تعودوا على استعمالها، بأن التبغ لا يمكن بأية طريقة أخرى، تدخينه بصورة ملائمة. لقد مرّ زمن كان فيه سكان الواحات أكثر تديّناً من البدو، لكن ذلك الزمن قد مضى، والآن ينظر إليهم البدوي بحماسته الدينية وكأنهم أقرب إلى الكفار. قال أحد سكان المدينة وهو يشرح باحتقار كبير: (هؤلاء هم الرجال الذين يعتقدون أنهم مؤهلون لإرشادنا في المسائل الدينية. إنهم لا يعرفون أبسط الصلوات. رؤوسهم ممتلئة بالقمل ومن الصعوبة أن يجد له مكاناً فيها. ملابسهم لا يغسلونها قط. نساؤهم يخرجن بلا حجاب. إنهم حيوانات متوحشة ليس إلاّ).

التغيرات الأساسية التي سببت هذا الانتقال من ظروف الصحراء إلى ظروف الواحة، تعود إلى سببين: هناك تقسيم للعمل، وبسبب ذلك لا بدّ من التمايز بين القطاعات والزُمَر الإجتماعية، ولكن الشيء الأكثر أهمية هو أن الأرض الزراعية في الواحات تقتنى كملكية خاصة، بينما الأرض في الصحراء مجاناً مثل الهواء. حتى عمل وثروة التجار مقارنة بعمل وثروة المزارع والحرفي تفضي إلى تمايز قليل في الطبقات الاقتصادية، لولا وجود ملكية خاصة للأرض، تنتج شعوراً بالتفوق المتعجرف والخضوع الذليل، كما لا ينتجه أي شيء آخر فالبدوي في الصحراء يقابل شيخه بقليلٍ أو بدون شعور بالصّغار، مع أن للشيخ قوة الحياة والموت عليه. فأفقر بدوي يعرف، إذا ما اتّحد مع آخرين من نفس وجهة النظر، أن له نفس القوة على الشيخ. أما المزارع المقموع على أية حال فانه لا يواجه مالك الأرض، بالطبع، بأي شعور بالمساواة. إنه يجبر لأن يتوسل على ركبتيه، وأن يقول الكلام مجازاً، من أجل فرصة العيش، ومن الصعوبة الإفلات من القناعة بأن شيئاً ما،

لا يمكن وصف قدره قد فقِد في مجرى هذه العملية.

ليس هناك من شعور بالحرية الطليقة في المدن كما هو في الصحراء. الرجال في المدن يعملون تحت الإشراف وتحت ضغط معين، وساعات عملهم ومظهرهم يتحكم به إلى حد بعيد الرجال الذين يستخدمونهم. فالمزارع في بساتين النخيل يجلّ الرجل الذي يمتلك الأرض، ومالك الأرض بالمقابل ينظر بازدراء إلى أيّ رجل يشتغل عنده. لقد اختفى جوّ الديمقراطية حيث كل إنسان ينظر إلى أخيه في عينه دون أن يطرف، بمساواة كاملة. لقد ذهبت وحدة المجتمع. إن المزارع في بساتين النخيل لا يخطر بباله الدخول إلى غرفة استقبال الرجل الغني الذي يملك بستانه.. ومع أن له الحرية في أن يراه إذا تعلق الأمر بالعمل، فإنه ليس ندّاً في الحياة الاجتماعية.

من ناحية أخرى، هناك ما يعّوض عن ذلك. فالحياة في الواحات، بأي معيار ممكن، أكثر تحضّراً بكثير، من الصحراء. راحة الناس أكبر. قد يعتبر المزارع نفسه، أنه يعمل بكدح، ولكنه لا يُكافأ مُكافأة حسنة. كلا القولين صحيح. شروط اتفاقه مع مالك البستان مجحفة. وهو يعرف حق المعرفة أن عمله يجعل مالك الأرض غنياً، بينما يبقى هو فقيراً. مع ذلك، فان نصيبه وافٍ أكثر، وأنه أكثر احتراماً من البدوي. زوجته في الأقل لا تغسل شعرها ببول البعير!. والمجتمع ككل، وبينهم الحرفيون والمزارعون، لديهم طعام كافٍ وملابس ملائمة، فالناس يحافظون على النظافة، بالمقارنة مع الأوضاع في الصحراء. إن بيوتهم سواء بنيت بالآجر أم بالطين أم بجذوع النخيل أو سعفه، ستر لهم من الطقس. فهي دافئة في الشتاء، وباردة إلى حدّ ما في الصيف. ومن المنعش أن تراهم في العطل بملابس زاهية. حتى أكثر الفقراء

بينهـم، لديهم وقـت طويل للراحة، وباسـتطاعتهم زيـارة أصدقائهم والتمتع بحياة إجتماعية سارّة.

إن هـذا المجتمـع ينطوي أفراده على نظرائهـم من نفس الطبقة، ومع هذا التحديد فان الحياة في الواحات جميلة وحرّة وغير مقيدة، تماماً كما لدى البدو. مما لا شك فيه، هناك، بطريقة أو بأخرى، عفوية وألفة حسـنة وأخوة صادقة، تتجـاوز أي شيء يعرفه البدو. البدويّ فرداني، وأفضـل مـا يكون في بيتـه، وعلاقتـه بأصدقائه تكون خـارج خيمته، حتـى وإن كانـوا من أفـراد قبيلته، وهـي مطبوعة بالصمـت والكتمان الشـديدين، وهي أبعد ما تكون عن الـروح التي يظهرها الحدادون في الأحسـاء في لقاءاتهم الاجتماعية في المسـاء، أو حينما يستضيف ويروّح بستانيو النخيل في القطيف غريباً.

عـلاوة عـلى ذلك، ففـي مـدن الواحات تلـك، أخـذت تظهر طلائـع الفن العـربي.. فالخـطّ العربي، فـنّ حقيقي، إذا جـرى على يد خطـاط متمكن. ومن المحتمل أن الخطـاط الخبير هو من أكثر الفنانين تطـوراً. كثير مـن الحرفيين يضعون في أعمالهم الـروح الحقيقية للفنان، فدلال القهوة في الأحساء، كثيراً ما يظهر عليها الفن الحقيقي، وخاصة بزخارفهـا، وكذلك الصناعات الجميلـة، الفضية والذهبية، التي يقوم بهـا العـمال، وعلى الخصـوص حلي الـزواج للنسـاء، والتطريـز الذي يزخرف ملابس الرجال والنساء. إن هذا كلّه يظهر فنّاً حقيقياً.

أكثـر مـن ذلك، هو الإقبال الشـديد على التعليم في الواحات، وبصـورة أساسـية بين أفـراد الطبقـات العالية، وحتـى إلى درجة غير قليلـة، الطبقـات الدنيا. يفتخر إبن سـعود، أن في مدن الجزيرة العربية ثلثـي الرجـال يسـتطيعون في الأقـل قـراءة القـران، وأن كثـيراً منهم

يستطيعون أن يكتبوا كذلك. نظام حكومته في التعليم واسع، وذلك مفخرة له. والعدد المعيّن من الصحف العربية التي كانت تُقرأ، تأتي من مصر والقسطنطينية، وبغداد، وأهم من ذلك كله أن أعدادا مذهلة من أبناء المدن هؤلاء كانوا يسافرون. وينحدر المسافرون من كل فئات المجتمع. بعضهم سافروا كتجار وآخرون سافروا كخدم، وبعض ثالث أبحروا كبحارين من المدن الساحلية، أو بالتأكيد كوقّادين في بواخر (الإنجليز).

لقد التقيت برجل في الأحساء دار العالم، كعضو في فرقة الألعاب البهلوانية. لقد زار كل عاصمة كبيرة بأوروبا تقريباً، وبعض المدن الكبيرة بأمريكا. في الواقع أن هناك كثيراً جداً من الأفكار التي تبعث على الدهشة، ومن الأفكار الفجّة التي يصادفها الإنسان في تلك الأماكن، إلاّ أن هؤلاء الرحالة قد تجاوزوا في الأقل مرحلة الاعتقاد بأن الأرض مسطحة. رُوي لأحد من هؤلاء بأنه قد أنشئ (تلسكوب) مؤخراً ـ وكيف من المأمول بواسطته اكتشاف حقائق كثيرة جديدة عن القمر، من بين الحقائق الأخرى. فما كان منه إلاّ أن قال: (أي، نعم، كنت قد قرأت عن ذلك في الجريدة. فبهذه الآلة يقدرون أن يروا أن القمر مأهول. لقد رأوا بستاناً، ومنه خرج رجل وتحت إبطه شيء ما، ولكن كان من الصعب التأكد، هل كانت تحت إبطه بطيخة أم شمّامة)!.

يشعر الغربي وكأنه بين أهله وذويه، حينما يلاحظ العناصر المادية للحياة في الواحات. هناك تشابه قريب جداً في التنظيم الاجتماعي، والتفكير الاقتصادي، والشيء المدهش، هو التطور الديني الكبير. لن تجد مجتمعاً أكثر تديّنا في العالم من سكان الواحات، فالدين ليس قضية

تخص رجال الدين فحسب، إنه الهمّ الأساسي لكافة أبناء المجتمع. إن الآخرة شيء لا يمكن وصف أهميته في عقول هؤلاء الناس، كل الفئات تشترك في هذا الشعور.

في الواحات القريبة من الساحل حيث العالم الحالي مكان أكثر راحة من الصحراء في داخل الجزيرة العربية، لا يوجد إلاّ القليل من التوكيد على الآخرة. معظم رجال الدين من البدو يعيشون في تلك المدن، وبهذا المعنى، فإنها مراكز دينية في الجزيرة العربية، ولكن عامة الناس في الواحات يولون اهتمامهم للمسائل الدنيوية. إن دين الفلاح الذي يعيش في مثل هذه الواحات، ليس تقريباً بقوة دين البدوي فلسفياً، وفيه الشيء الكثير من التطيّر، فالسكان في الغالب وبدون استثناء شيعة وليسوا سنّة. إن إبن الواحة على أية حال، أكثر تسامحاً من البدوي السنّي، وأكثر استعدادا بكثير لأن يكون جيرانه، من مختلف المعتقدات. إنه، أي الشيعي، لا يريد أن يأكل مع الكافر، ولكن لا تراوده أدنى رغبة لقتل الكافر أو حتى لاخراجه من القرية.. وبقدر ما يتعلّق الأمر به، فقد يعيش اليهودي في مدينته إذا كان مواطناً محترماً، وخاصة إذا أدّى عملاً مفيداً في المكان. ويكون مسروراً لو أن طبيباً كافراً نصرانياً جاء وفتح مستشفى.. وحقيقة أن هذا الطبيب يمثل ديناً مختلفاً، لا تسبب له لحظة قلق.

من ناحية أخرى فإنّ عدم تسامح بعض الجماعات التي تعيش في الواحات ولا سيما سنّة الجزيرة العربية، كبير جداً.. فقد يُسمح لأحد أفراد الطائفة الشيعية للسكن في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية، ولكن في المركز يُنظر إلى الشيعة نظرة عدائية شديدة من قبل المتطرفين. يعدّ وجود نصراني تلوّث، ووجود يهودي شيء لا يُحتمل

بالنسبة إليهم. يعتبر هؤلاء المتطرفون كلّ بقيّة العالم كفرة تعيسين، ويتطلعون بغبطة إلى ذلك اليوم الذي يشوون فيه في الجحيم.

ما عدا عدم التسامح هذا، يبدو أن كل عنصر ضروري للتقدّم موجود لدى مجموعات العرب هؤلاء. بالتأكيد ليس هناك من قصور في الذكاء الحادّ في دراسة وتفسير القضايا في العالم. وليس هناك قصور في الولاء، في إتباع قائد موثوق به. فبدايات الفنّ واستحسانه من قبل الناس ككل، تبدو مشجعة تماماً. وهناك إقبال شديد، جدير بالثناء على التعليم. صحيح أن نظام التعليم حتى الوقت الحاضر مؤقت، لكن ما من أحد يشكّ بأن إتقان القراءة والكتابة بين الذكور بنسبة خمسة وسبعين بالمائة، إنجاز كبير. من المستحيل لأي شخص أن يكون عارفاً بحياة العرب في الصحراء وفي المدينة بدون الوصول إلى سؤال محيّر وهو سبب جمودها الدائم. ما الذي يشدّ العرب الى الخلف؟.

يكمن الجواب في سطح المجتمع العربي. فمن الواضح بلا ريب، أنه عادة ما يفلت من الانتباه، أو أنه بعد تدقيق كبير يصل المرء إلى إدراك تأثيراته وملابساته. فبالنسبة إلى قادم جديد من أمريكا، فان أعظم الاختلافات إدهاشاً بين المجتمع الذي غادره، والمجتمع الذي حلّ به الآن، هو العلاقة بين الجنسين. كل الشهوات الحيوانية تطورت لدى العرب، لكن ما من مكان آخر كان فيه التطور غير متوازن ومؤذياً إلى حد بعيد، كما في الشهوات والعواطف المتعلقة بالجنس. ربما تطورت هذه الشهوات بحدّة لدى العرب كما عند أي جنس بشري في العالم. إنها بلا ريب أكثر حدّة مما عليه في أوروبا وأمريكا، فالعربي يعرف ثلاث متع: شمّ العطور، والأكل، والنساء للتمتع بهنّ.

وخلال عشر سنوات من الممارسة الطبية في الجزيرة العربية، لم

أصادف أي عربي جاء من أجل دواء مقوٍّ ربما بسبب هموم عمله، أو لأن أيّاً من نشاطاته العادية في الحياة، قد زاد عن حدّ طاقته. لكن مئات منهم جاءوا ليسألوا عن نوع من أكسير الحياة لتطويل وزيادة متعته الجسدية كأب. إن العادات التي خلقتها شهوة العربي، سمحت له بالزواج من أربع نساء وما شاء من محظيات، وهو قد يطلّق أية زوجة، متى يريد، ويبيع أية محظية.. وعلى هذا فهو يستطيع أن يغيّر شريكته متى أراد، وأن يعقد الزواج على أخرى جديدة في أيّ وقت يضرب فيه الهوى، ومتى وجد شريكاته الأوّليات قد أصبحن مسنّات، أو غير جذّابات، وهو أمر شائع الحدوث بعد ولادة النساء لأطفالهن، ولا يبقى لديهن إلاّ القليل مما يقدمنه بخصوص الإشباع الجنسي. هنا يمكن تصوّر النتيجة: فالمتع التي يرخص بها ويوافق عليها رأي عام كهذا تفضي إلى الهيمنة على الأفق العاطفي جميعاً. ربما تمحورت ما نسبته ٩٠٪ من هذه المتعة الكامنة لدى العرب في هذه التجربة الخاصة.

قد نتوقع أن نرى عناية شخصية تُصرف على الأطفال في بلاد كهذه، وأن نرى الحياة كلّها تتمحور حولهم. ولو كانت قوى الدين قد وظّفت لبلوغ هذا الهدف لكان ذلك هو ما قد نراه. ولكن الدين في الواقع استسلم للعرف والرغبة. لقد سلك الناس الطريق الأسهل الذي يؤدي إلى تركيز كل الاهتمام في الانغماس الجسدي في الجنس، وإنجاب الأطفال يُشكل عائقاً كبيراً، فعالم الرجل العربي لا يدور حول الأطفال، فهم مجرّد حدث عارض، على الرغم من أنهم يُقبّلون ويدُلّلون. ما يبهج العربي هو اللذة الجسدية مع زوجة جديدة وجميلة.

من حسن الحظ، فإن لهذا الانغماس حدوداً طبيعية. إذ إن عدد النساء في العالم العربي لا يفوق عدد الرجال إلاّ قليلاً.. ومن الواضح

أن نسبة الرجال الذين يمكنهم الزواج من أربع نساء قليلة. صحيح أن لدى العرب عموماً، شهوة جنسية متطورة بصورة غير سوية، وتدور كل حياتهم العاطفية حوله، لكن لم يستسلم الجميع لهذا النوع من الإفراط بقدر متساو. فتعدّد الزوجات غير معروف لدى البدو في الصحراء في أغلب الأحيان، كما أن الطلاق غير شائع بينهم. كذلك فإن الفئات الأكثر فقراً في الواحات وفي المدن الساحلية، تشترك مع البدو في هذا الاستثناء.

إن نظام تعدّد الزوجات لدى الأغنياء مطبّق إلى أقصى حدّ، وبعض الرؤساء (العُمَدْ) في الواحات هم من أسوأ المتجاوزين للحدّ. عرفتُ واحداً أو اثنين منهم، وقد ذاع عنهما أنّهما يتزوجان بمعدل زوجة جديدة في الشهر. وبنفس السوء تقريباً هم تجار الواحات والمدن الساحلية. من نافلة القول إن الأغنياء والأرستقراطيين هم الوحيدون الذين يمكن لهم أن ينغمسوا في إشباع شهواتهم إلى هذا الحدّ من الإسفاف، لأن تغيير الزوجات بتلك الصورة يتطلّب كثيراً من المال.

(٢)
حكم الأتراك

كان عدد كبير من العرب تحت حكم الأتراك لسنين طويلة، وكانت بلاد الرافدين والحجاز واليمن والأحساء مناطق تركية قبل الحرب (العالمية)، كما أن تركيا طالبت في بعض الأحيان بالسيادة على كامل الجزيرة العربية. شّكل الأتراك أقليّة صغيرة جداً من السكان في جميع المناطق التي سيطروا عليها، فقد كانوا أكثر قليلاً من طبقة حاكمة. وحتى في بلاد الرافدين حيث عدد الأتراك القاطنين فيه كان الأكبر، لم يصلوا إلاّ إلى نسبة قليلة من المجتمع. إن الفردانية العنيفة لدى القبائل العربية، والاستحالة الناجمة عن ذلك، ليعملوا ويقاتلوا معاً، جعلتا من الممكن ضمّ مناطق واسعة من قبل أمّة بعيدة، قدّمت أفضل المقاتلين، وبالتأكيد أفضل الحكام والإداريين.

نظرية الحكومة التركية غير مختلفة كثيراً عن نظرية العرب، فعمل الحكومة هو المحافظة على النظام العام، وحماية الفقراء من الأغنياء والقيام بشؤون العلاقات الخارجية. هذه الأمور تتعهد بالقيام بها الحكومة التي هي ممثلة للحاكم المطلق أي السلطان، وهو

يسترشد ويتقيّد إلى حد ما بالقانون المكتوب. وتوجد أيضاً هيئة محلية رسمية تُمثَّل فيها كل القطاعات المختلفة للسكان. على هذا فبنية الحكومة حسنة جداً، وهي ليست أسوأ من النظام لدى العرب، ومن المحتمل أنه أفضل. إن القانون التركي المصنّف بشهادة الجميع، ممتاز، على الرغم من أن عدم وجود فقرة تتعلق بعقوبة الإعدام، تعدّ نقطة ضعف. فالسجن لمدة خمسة عشر عاماً هي أقصى عقوبة يُسمح بها.. وبقدر ما يتعلق الأمر بالجزيرة العربية، على أية حال، فان هذا التحديد، نظري أكثر منه عملياً. فحاكم ثابت العزم قد يعدم دزينة من المجرمين في اليوم الواحد، وذلك بطرق غريبة وفظيعة، فعدم وجود مبدأ للعقوبة بالإعدام لم يمنعه من فعل ذلك.

على أية حال، ففي بلد مثل الجزيرة العربية، فان القانون المصنف، له منافعه ومضارّه. كل اعتبار للإسراع والفاعلية، تدعو العرب للتخطيط إلى حكومة يديرها فرد واحد ولا يقف في طريقها شيء. ومما زاد في الأمر سوءاً هو ظهور مجموعة كبيرة من المحامين، الذين ربما لا يمكن الاستغناء عنهم إذا توجب علينا العمل بالقانون المصنف.. ولكن من الصعوبة اعتبارهم أيّ شيء سوى أنهم مسببون للأذى في الجزيرة العربية. إنهم يعيقون مجريات العدالة، وكما في الهند، فإنهم يقدمون حافزاً كبيراً في إثارة شهيّة الناس للدعاوى القضائية، ومعهم يأتي الروتين الطويل وتأجيل المحاكمات الذي لا حصر لتكراره، حول الشهود والنقاط القانونية الشكلية من كل نوع.

محاكم كتلك تصبح بؤراً للرشوة، ومن الصعوبة إنجاز أي عمل مع رسميين كهؤلاء بدون استخدام الرشاوى كوسيلة.. ولكن مما ومما يبعث على الارتياح أن نسجل أنه في الأيام الأولى لجمعية الاتحاد

والترقي، كانت القسطنطينية تقريباً خالية من هذا الشّر. ففي عام ١٩١٢ حينما قدمتُ طلباً للحصول على شهادة طبية، لم تكن هناك أية رائحة فساد في أية مكتب رسمي تعاملت معه، ولم يسألني أي موظف رسمي، كبيراً كان أم صغيراً عن أي بقشيش مهما كان صغيراً. وإذا كان من الضروري أن أسجل شيئاً واقعياً، إذن لأقل أن هذا التغيير لم ينتشر إلى جميع المقاطعات، ولكن بدلاً عن ذلك فان المعايير القديمة جُلبت من المقاطعات إلى القسطنطينية ثانية، أقول إذا كان ذلك ضرورياً، فما يزال من الجائز الاعتقاد بأن وضع القسطنطينية في ذلك دليل على ما سيأتي به المستقبل لجميع تركيا.

مع ذلك فأن نجاح الإدارة التركية، كما هو شأن الإدارة العربية، يعتمد على الحاكم، ذلك أن الحكومة في واقع الأمر هي الحاكم. ونجاح أو فشل الإدارة التركية لا يعتمد إلاّ قليلاً على كمال القانون، وإلاّ قليلاً على قابلية المرؤوسين. كل شيء يعتمد على الحاكم نفسه.

قد يصادف (الغربي) مفاجآت قليلة محتملة أكبر من مصادفة واحد من هؤلاء الرجال الذين تعودتْ القسطنطينية أن ترسلهم إلى تلك الوظائف الصعبة، فتصورّنا الغربي عنه، أنه سمين وقصير، بربري فظيع الملبس، يداه تقطران دماً، وكل سلوكه هو سلوك إنسان قاس، متوحش، متعطش للدماء. باختصار، إن الصورة التي تكوّنت عندنا من الصور الكاريكاتورية في صحفنا، ومن الاتهام الجاهل وغير المعقول للأتراك، الذي كان شائعاً فيها. الفرق بين الصورة وبين الحقائق شيء مضحك. فالموظف الرسمي التركي رجل ذو تعليم كبير، ومهذب فوق العادة. إن المبشّر الأمريكي المتوسط، يقف وراءه بمراحل من حيث معرفته باللغات العصرية. ومما سيندهش له أي

(غـربي) غريـر إذا حاول أن يتحـاور مع هؤلاء الأتـراك أنهم يتقنون، أولاً اللغـة التركية، وبعدئذ باللغة الفرنسـية، وبعدئـذ باللغة الألمانية، إنهـم يتقنونها بصورة حسـنة. من الضروري للمبشر عـادة أن يتحاور باللغـة الإنجليزيـة، أو العربية، ومن الأفضـل العربية، على الرغم من أن الموظـف الرسـمي التركـي لا يحّب التحـدث باللغـة العربية، التي كانت بالنسـبة له دائماً لسان أمّة محكومة. حتى الفرنسي نفسه لا يمكنه أن يتفوق على سـلوك هـؤلاء الأتراك، من حيث التهذيـب والدماثة. لقد سـافرت عـدة مرات مع موظفـين أتراك صغـار في الدرجة الثالثة بسـفينة نهرية، وبهذه الطريقة البوهيمية الخشـنة عشنا معاً لبضعة أيام، وحين وصل الموظف الرسـمي التركي إلى المرفأ، جرى عليه تحوّل يثير الإعجـاب.. فقد نـزل، وذقنه محلوق بعناية وملابسـه أنيقة، وكأنما قد خـرج من صالون فرنسي. دُهشـت من هـذا التغيير وحسـدتُ قابلية كهذه على تغيير الملابس.

الموظفون الأتراك الذين حكموا الجزيرة العربية، ومن المحتمل أنهم سـيحكمونها مـرة ثانية، كانـوا متعلمين ومهذبـين، بالإضافة إلى ذلـك، فان كثـيراً منهم يتمتعـون بقابليـة كبيرة. مع ذلـك، وبصفتهم حكاماً على شـعب غريب فقد فشـلوا، وفشـلوا بصـورة يرثى لها. من الصعوبـة تصـوّر حكومة أسـوأ مـن الحكومـة التركيـة، في الأقل كما شـوهدت في الجزيـرة العربيـة، وأعتقـد أن معظـم (الغربيـين) الذين اتصلوا بهؤلاء المسـؤولين، توقفوا في بعض الأوقات ليتسـاءلوا لماذا لم تنتج قابلياتهم الكبيرة نتائج أفضل؟.

الأسـباب لا تحتـاج إلى كبـير عنـاء.. فطريقـة التعيـين لحـكام الولايـات تجعـل الحكم مسـتحيلا، فالوظائف تباع بالمـزاد العلني إلى

أعلى مزايد، وطريقة اختيار كهذه تبدو في نظر أي غربي، مهلكة، وإمكانية قيام حكومة صالحة عقيمة كل العقم. في واقع الحال، إن المسؤولين الذين يحصلون على وظائفهم بهذه الطريقة، هم في أغلب الأحيان ممن يتمتعون بقابلية كبيرة تناسب العمل بصورة ممتازة. إن حكومة جيدة في (الشرق) لا تتطلب توافر رجال غير أنانيين لا يمكن إفسادهم، حتى تحقَّق ما تريد أن تحقق، أما إذا كان الأمر يتطلّب ذلك فعلاً، فالحالة تُصبح ميئوساً منها. من حسن الحظ، إن أي قاطع طريق قد يصبح حاكماً قديراً وفعّالاً جداً، وذلك بتقليل عدد قطاع الطرق الذين يسرقون الجمهور إلى واحد، وقد يكون قاطع الطريق هذا حاكماً أفضل من رجل ضعيف بنوايا أفضل، وبالنسبة إلى الجمهور، فإن من الأفضل أن ينهبه حاكم سلاّب واحد من أن ينهبه خمسون سلاباً من التجار ومالكي الأراضي.

ولو كانت هناك طريقة ما، يضمن فيها الموظف الحفاظ على وظيفته لمدة خمس سنوات، لكان أسلوب الحكم التركي في الجزيرة العربية، أفضل مائة بالمائة. ففي الأحساء مثلاً، حَكَم الأتراك حوالي خمسين سنة، وفشلوا في أن يخلفوا وراءهم أية آثار ذات شأن، عدا الكره العميق لدى عامة الناس. تكمن العلة في ذلك بصورة رئيسية في المدة القصيرة في المنصب.. لا بدّ أن معدل البقاء في الوظيفة كان أقل من سنتين بكثير، وكثيراً ما تبقى الوظيفة شاغرة لشهور، وفي هذه الأثناء يكون الإقليم تحت حكم نائب ما، وهنا لا يتوقع حتى أقدر الإداريين في العالم وأكثرهم نوايا طيبة، أن يحقق أيّ شيء جدير بالاحترام في مدة قصيرة كهذه.

وبناء على شهادة العرب المحليين الذين لم يتضرروا بالطبع في

مصالحهـم، فان كثيراً من هـؤلاء الحكام كانوا مؤهلـين للحكم، وإلى درجـة مـا، مـن ذوي النوايا الطيبة أيضـاً، وقد كان كثـير منهم توآقين لأن يضيفوا شـيئاً إلى مقامهم وسـمعتهم، وذلـك بتحقيق نجاح جليّ في إدارتهـم. إن الحضـارة والثقافة التركية كانت سـتترك أثراً متميزاً في العرب، لو أُعطي الرسميون الأتراك وقتاً معقولاً لتدبير خططهم.

إن مشروع تعيين موقع جديد لسوق القطيف، ومشروع تعميق ميناء القطيـف هـم نموذجـان للمشـاريع التركية، وللأسـف كانت نهايتهـما على الطريقة التركيةً أيضـاً. إن الطريقة المهلكة في بيع وظائف كهـذه، إلى أعلى مزايد قاتلـة لكل احتمالات حكم صالـح، خاصة إذا كانت مدة الخدمة لعام أو لعام ونصف.. وبناء على طبيعة هذه الحالة، يمكـن للموظف أن يكرّس وقته لتعويض نفسـه عـمّا دفع، إذا أمكن، وإضافـة بعـض الربح الطفيف عـلى ما دفع في المزايـدة للحصول على الوظيفـة. ولكـن إذا ما أُعطي المسـؤول وقتـاً أطـول في الوظيفة، فان هذا الباعث الشـخصي قد يختفي إلى حدّ ما، وتكون له فرصة لتحقيق طموحه الوظيفـي الاعتيادي، والنجاح في مهمتـه. ومن نافل القول، إن تعقيـدات كل وضـع محـلي، لا يمكـن السـيطرة عليهـا وإدارتها في غصـون ثمانية عشر شـهراً، لذا فإن صياغة أي مـشروع جيد ومعقول مسـتحيلة بالنسـبة لهؤلاء المسؤولين، حتى إذا سـلّمنا بأنهم مدفوعون برغبة شديدة في الحكم لصالح المجتمع.

يجـب أن يضاف لأسـباب الفشـل تلك، سـببان همـا أكثر أهمية حتـى ولـو كان الحـكام غـير صادقـين وغير كفوئـين. فما عـدا بعض الاسـتثناءات، فان الموظف التركي يعتبر وظيفته وسـيلة لكسب رزقه أو لجمع ثروة.. في حين ما من شيء أكبر في تركيا من فساد وإرتشاء كل

موظفـي الحكومة، مـن أصغر كاتب إلى حاكـم المنطقة. ولدى العرب قصـة حدثت في يوم ما، لمواطنين في قريـة معينة وقد قرروا أن التجارة المحلية ستسـتفيد من بناء جسر على نهـر كان يجري قريباً من مدينتهم، وقدروا أن كلفة الجسر تبلغ أربعة جنيهات تركية، أي أقلّ من عشرين دولاراً، ولأنهم غير قادرين على جمع هذا المبلغ الضخم، فقد التمسـوا مـن المتصرّف أن يحصل لهم على هذا المبلغ من إعانات حكومية. وبعد التحقيـق، صادق المتصرّف على المشروع، وأرسـل الطلب إلى (الوالي) في المنطقـة، وكما جاء في كتابه الرسـمي: (إن أبناء هذه القرية، يرغبون في أن تقوم الحكومة بتشييد جسر لهم على النهر، وبعد التحقيق، فإنني أصـادق بحرارة على هذا المشروع. إنه سـيكلف حـوالي أربعين جنيهاً تركيـاً، وإني لأجـرؤ عـلى التعبير عن الأمـل الحار، بأنك حـرّ في تلبية طلبهم).

تفحّـص الـوالي من جانبـه الطلب وصادق عليـه، على أنه شيء سـيعود بلا شـك بالفائدة على ذلـك الجزء من إقليمه، وهكذا أرسـل الطلـب إلى القسـطنطينية مـع تصديقه عليه. لقد كتـب: (إن أبناء هذه المدينـة طلبوا تصديق الحكومة عـلى مبلغ أربعمائة جنيه لبناء جسر على النهـر الذي يجري عـلى مبعدة قليلة من قريتهم. إن هذا المشروع حظي بتصديق حار من قبل المتصرّف، وأنا سعيد لأن أضيف بأن رأيي يتفق مـع رأيه تماماً. إنه إصلاح يعود بالنفع على منطقة واسـعة، وذلك لأنه سيحسّن تسـهيلات التجارة، وإنى لأجرؤ في التعبير عن أملي الشديد بأن يحظى بعنايتك). رعت السلطة في القسطنطينية المشروع، وأرسلت إلى الوالي أربعمائة جنيهاً، فاحتفظ لنفسه بثلاثمائة وستين مرسلاً أربعين إلى المتـصرّف الـذي احتفـظ هو الآخر لنفسـه بسـته وثلاثـين جنيهاً،

مرسلاً أربعة جنيهات إلى مجلس القرية الذي أنشأ الجسر، وكل واحد كان سعيداً. إن هذه القصة هي محض خيال، ولكنها كأي عمل خيالي في هذا العالم حقيقة تماماً.

يضاف إلى الرشوة والفساد، عنصر عدم الفاعلية وهو كما يبدو عميق عمق حفرة بلا قعر. بالنسبة إلى حاكم تركي اعتيادي، فان باستطاعته أن يملأ جيوبه بضعف المعدل الذي كان يملأها به، وفي نفس الوقت يخفّف من أعباء الناس الى النصف إذا كان يملك أقلّ القدرات لحكم البلد بكفاءة. فمهما كان تعليمه كبيراً، ومهما كان دقيقاً مظهره الخارجي المهذب الذي يريد أن يظهر به الى العالم، فان الكفاءة كانت بالنسبة له سرّاً لا يسبر غوره. لقد قيل إن مركز الحكومة التركية في الأحساء كان قد تُرك بعهدة موظفين يُقدر عددهم بعشرين إلى خمسين بناء على تقديرات محلية متباينة، بينما يقوم بنفس هذا العمل الآن محمد أفندي، وقد كبر العمل عدة مرات تحت حكم إبن سعود، بمعاونة مساعدين اثنين. ومن المأمون القول إن الرجال العشرين تأخروا بالقيام بعملهم الحكومي، إذ تستغرق المعاملة عند محمد أفندي عُشر الوقت الذي كان تستغرقه في السابق.. والأحساء هنا مثل جيد للاستشهاد به على هذه النقطة، لأن محمد أفندي كان موظفاً في الحكمين التركي والسعودي.

لم تكن حكومة الأتراك التي كان يديرها هؤلاء الرسميون غير مقبولة شعبياً بالدرجة التي قد يتوقعها (الغرب). لقد أصبحت الآن شتم ذكرى الأتراك في الأحساء هي العرف السائد، ويعود ذلك إلى درجة كبيرة، للظروف الشاذة التي جعلت إدارتهم لشؤون البلد ضاغطة بشدة على الناس العاديين وبالخصوص بوسائل واضحة

صريحة. إن فشلهم في كبح القبائل البدوية هو الذي جعل إسمهم بغيضاً في تلك المنطقة، الأمر الذي أعطى البدوي حرية التصرف تقريباً فاضطهدوا سكان المدن بقسوة.. ونادراً ما تُذكر الإدارة الفعلية للشؤون المحلية من قبل الأتراك، وحينما تذكر فبالإطراء في أغلب الأحايين. إن وجهة نظر عامة الناس في بلاد الرافدين، أكثر رضا بكثير عن الحكم القديم.. ففي أيام الحكم التركي في ذلك البلد كان التجار الأغنياء، ولا سيما اليهود والنصارى الأغنياء هم الذين شعروا بوطأة الأتراك الثقيلة، في حين كان عامة الناس، راضين تقريباً، والآن وبعد أن أستُبدل التركي، بالإنكليزي الكفء الصادق، تتحسّر حتى الأقليّات النصرانية على الماضي وتتمنّى عودة الحكم التركي.

لهذه الظاهرة، وإن كانت تثير دهشة العقل الغربي، تفسير، مثل أية ظاهرة أخرى في هذا العالم، والتفسير ليس ببساطة أن كل العرب حمقى، أو كما قد يقول رجل إنكليزي: (تيوس سخيفة). التفسير، قبل كل شيء يمكن العثور عليه في بنية المجتمع العربي والحكومة. فمع كلّ التعديلات التي جاء بها الأتراك وأكبرها ربما هو إدخال القانون المصنف، بقي شعور المجتمع العام عربياً، كما بقي الإطار الأساسي للمجتمع عربياً كذلك. فالمتصرف أو الوالي كان ما يزال بنفس المركز الاجتماعي كشيخ عربي. فهو يشغل منصبه بفضل حقيقة أن أغلبية كبيرة من الناس راضية عنه. إنها لحقيقة إن اغتيال متصرف تركي كان يتطلب، بصورة ما، نسبة أكبر من السخط، مما يتطلبه اغتيال شيخ عربي، إلاّ أن الاختلاف كما أعتقد، أقل مما يمكن تصوره. كانت النتيجة بالطبع، أن التركي مهما كان عِظَم ما قد يضطهد به الأغنياء وينهبهم، إلاّ أنه كان حريصاً على إرضاء الفقراء. من السهولة بالنسبة

لنا أن نقول بأن الثمن سيحوّل إلى الجمهور في نهاية المطاف، إلاّ أن الجمهور لا يعرف بتلك الحقيقة، ورأيهم يستند على ما كانوا قادرين على رؤيته.

فضلاً عن ذلك، فان البيان نفسه ليس صحيحاً بالجملة، فليس كلّ الثمن سيحوّل إلى الجمهور.. فالمتصرف أو الوالي يعتبر أن من واجبه حماية الفقراء من الأغنياء. ومهما كان عِظَم قرصنته هو نفسه، فانه غالباً ما يتمكن من أداء هذا الواجب على خير ما يرام. وفي مجتمع يستطيع فيه الحاكم على نحو استبدادي أن يضع يده على نصف ملكية إنسان فجأة، وما لهذا الإنسان من خلاص، فمن الواضح إذن أن بإمكان حاكم قوي، توزيع الثروة بالتساوي تقريباً. ومن الواضح أيضاً، خاصة إذا كان صاحب الملكية يهودياً، أنه سيئنّ تحت وطأة تلك الأوضاع باطراد، وما هناك من يقين، من أن الناس سيتعاطفون معه. في الواقع إن الناس في بلاد الرافدين، لم يتعاطفوا معه.. لقد صفقوا للحاكم استحساناً.

من نافلة القول، إنه مع القانون المصنّف، ومع كل التعديلات الأخرى للنظام العربي الذي أدخله الأتراك، فان هذا النظام لا يمكن له أن يؤدي وظيفته بفعالية كما أدّى وظيفته عند العرب. فمزارعو النخيل في بلاد الرافدين لم يكونوا محميين بصورة جيّدة من جشع مالكي الأرض الأغنياء، كما هم محميون تحت ظلّ حكومة عربية في صحاري وسط الجزيرة العربية. مع ذلك فلم يقم النظام بمهمته بصورة ما، ولكن مع فئات الحرفيين والقبائل شبه البدوية في بلاد الرافدين، أدّى النظام وظيفته بشكل أفضل مما أدّاه مع مزارعي النخيل.

توجد أمثلة كثيرة، يمكن الاستشهاد بها، عن رجال كانوا

محبوبين من قبل عامة الناس في بلاد الرافدين، في الأيام القديمة، ولو أنهم مكروهون بحرارة من قبل الأغنياء، كان السيد طالب لص اللصوص. كان يفرض ضريبة على الأغنياء، وعلى اليهود المرابين، وعلى كل شخص آخر يمكن فرض ضريبة عليه. لم يكن موظفاً رسمياً، ولم يكن لديه أدنى حق شرعي بأيّ من هذه الأموال. كان يرسل خبراً إلى التاجر، يذكر فيه أنه يأمل أن يتسلم قبل غروب الشمس هدية مقدارها ألف جنيه، ويتسلمها دائماً. إن حقّه بهذا المال هو بالضبط نفس حق القراصنة في كل أنحاء العالم. كانت شخصية السيد طالب معروفة لدى الجميع، وقد كان يسكن في قصر كبير على النهر على بعد أميال قليلة من البصرة.. ولأن الحكومة لم تكن قوية بما يكفي لتوقيفه وإعدامه، فأنه عاش على هذا النحو لسنين طويلة، وحتى أنه مثّل منطقته في برلمان القسطنطينية لمدة من الزمن. ليست شخصيته سراً إذن، إلاّ أنه كان يستاء إذا ما أُعلن عنها، حتى أن أحد محرري الصحف حينما نشر بعض الملاحظات عن الموضوع ضُرب لدرجة الموت تقريباً في القصر حيث نقله إلى هناك عبيد السيد طالب. على أية حال، ورغم كل هذا كان طالب كريماً إلى أبعد الحدود تجاه الفقراء، وأطعم كثيراً من الشحاذين، وكان الناس في كل المنطقة يعتبرون هذا اللص سيئ الصيت واحداً من أفضل أصدقائهم وحماتهم.

يدرس الزائر الغربي موارد البلد، ويرى أنها لم تستغل نصف استغلال إمكانياتها، ويعتبر ذلك دليلاً لا يدحض على أن الحكومة التركية في الأحساء سيئة إلى أبعد حدّ، وأن حكومة جديدة تحول تلك الموارد إلى أغراض نافعة، هي ما يُحتاج إليه. ولكن للعربي الذي عاش في الريف طيلة حياته، رأي مختلف. فالموارد لم تستغل، كما هي عليه

الآن ولا يدري أن كانت لها إمكانيات أخرى في المستقبل أم لا. إنه يريد الحكومة التي توفر له أفضل الطعام، وأكثر الملابس حشمة، وتجعل من الممكن له، بالكد والتدبير الاقتصادي، أن يسكن في بيت يقيه في الأقل من الشمس والمطر. إنه يريد أكثر من ذلك. إنه يريد حرية الذهاب إلى إي مكان يشاء، بدون تدخل، والسماح له بأن يكون من أية طائفة إسلامية يرغبها، وأخيراً وليس آخراً، لا يريد تدخلاً مزعجاً بحريته من أجل الأغراض الصحية والبوليسية. والآن فإن الحاكم التركي قادر على تلبية هذه الرغبات بصورة مقبولة: الأغنياء قمعوا ولكن بقي لهم الشيء الكثير، والفقراء لديهم انطباع بأن هناك من يرعاهم في الأقل، وهؤلاء لديهم ما يكفيهم من المأكل والملبس، ولم يكونوا مستاءين من قيود الحضارة. وعلى هذا كان الحكم التركي في العراق كان محبوباً من عامة الناس، وأكثر شعبية بكثير من الحكم البريطاني الذي خلفه.

من الخطأ الجسيم على أية حال أن نستنتج من شعبية الرسميين الأتراك أن حكمهم كان حكماً مثالياً للبلد، فتحت إدارتهم ضعفت التجارة، وبقي الإنتاج في أدنى درجاته، على الرغم من عدم وجود إحصائيات يُعتمد عليها بخصوص حكم الأتراك في الأقاليم العربية. ومما لا شك فيه أن عدد السكان نقص كذلك. والسبب في عدم وضوح هذا التأثير، للمراقب المعاصر بالطبع، هو أن التجارة والإنتاج والسكان، وصلوا إلى أدنى حد لدرجة فوق التصّور، فحكومة مشوشة والأوضاع الإجتماعية لم تكن قادرة على تخفيضها إلى أقل مما هي عليه، وعلى هذا بقيت ثابتة.

وهناك نتيجة سيئة أخرى نجمت عن الحكم التركي في البلدان

العربية، ألا وهي بروز الانقسامات والزمر. إن سياسة الأتراك معروفة، بإثارة الانقسامات، والنزاعات، وبهذا تجعل السيطرة على مناطق المتخاصمين أسهل الى حدّ ما. ففي الأحساء على أيام الأتراك، لم يكن السنة والشيعة منسجمين، فالسكان الأقوياء يضطهدون الضعفاء، والبدو من الخارج يدخلون ويسلبون بدون عائق في أغلب الأحيان. وفي الإمبراطورية التركية خليط لا شكل له من الأجناس كانت تقاومه، ولكن حتى صعوبات مهمتها الكبيرة، باعتراف الجميع، لا تبرّر فشلها التام. وعلى الرغم من أنها حكمت لمئات السنين، وكانت لديها الفرصة للعمل على التوفيق بين الأجناس المختلفة الذين يكوّنون سكان الإمبراطورية، إلاّ أن النزاعات الآن اكبر من أي وقت مضى، وفي أثناء الحرب شهدنا مشهداً مُقرفاً وفيه يحاول الجنس المسيطر أن يبيد عن عمد الأجناس المتمردة بصورة مبيت، وهذا بالتأكيد إقرار كافٍ بفشلهم.

الصابئة، أو عبدة النار في بلاد الرافدين، يزودوننا بمثال واضح عن عدم كفاءة الأتراك في مواجهة هذه المشكلة الصعبة بتمثّل الأجناس البشرية الغريبة. الصابئة هم بقايا سكان بلاد الرافدين قبل الإسلام، وهم الذين رفضوا أن يصبحوا مسلمين في أيام الفتح الإسلامي. لقد كانوا وما يزالون أثمن شيء للبلد، بقدر ما يسمح لهم عددهم الآخذ بالتناقص على أن يكونوا كذلك. أنهم أفضل حرفيين من غيرهم بمراحل، في العالم العربي، وبعض أشغالهم الفضية، تفوق أفضل ما تستطيع الهند أن تقدمه. إن هذه الجماعة الصابئية، المحبة للسلام تماماً والتي لا تعرف أيّ شيء عن فنون الحرب، كانت قد هوجمت واضطهدت حتى الآن فلم يبق إلا جزء صغير من أعدادهم الأصلية. عددهم الآن لا يتجاوز العشرة آلاف فرد، إذا ما وثقنا بتقديراتهم،

واختفاؤهم التام، على ما يبدو، سيكون في وقت قصير.

وهناك اتهام آخر يجب أن يوجه ضد الأتراك في العالم العربي، ذلك أنهم فشلوا تمام الفشل كقوة متحضرة. كانت تلك غلطتهم وليست سوء حظهم، ولا ينطبق هذا على حاكم عربي، لم ير أبداً طيف حكومة تقوم كقوة فاعلة في رفع المجتمع. فالمرافق الصحية في الأحساء لم تتحسن حتى بأكثر الطرق بدائية، كما أن البنايات العامة لم تتحسن، ولم يبذل أي مسعى لإنشاء المدارس، اللهّم إلا بناية مدرسية لم يكمل بناؤها، واستعملها إبن سعود في وقت لاحق كإسطبل، وكانت هي إحدى الغنائم التي حصل عليها، حينما استولى على مدينة الهفوف. وأقل الجهود التي بذلها الحكم التركي، هي الجهود لتطوير الناس لحكم أنفسهم في كل مجال.. ومما يدعو للأسف في هذا الفشل، أن الأتراك كانوا يمتلكون ثقافة، وفي بعض عناصرها قيمة كبيرة للعرب. إن الأتراك يشبهون العرب في مجالات كثيرة، وانهم، كما اعتقد مناسبون أكثر لأن يكونوا ناقلين للحضارة الأوروبية إلى العرب من الإنكليز والهنود، الذين من خلالهم بدأ يأتي تيار الحضارة الآن. لقد كان تقصيرهم كبيراً وهو أحد أكبر التقصيرات في التاريخ.

وهكذا جاءت النتيجة التي تبعث على الدهشة.. ففي عام ١٩١٣ عندما احتل النجديون في داخل الجزيرة، الأحساء وهم ليست لديهم أية معرفة مهما كانت صغيرة بالحضارة أو الثقافة الغربية.. تنفس البلد بكامله الصعداء. لم يكن للنجديين أيّة ثقافة يجلبونها، ولم يكونوا في وضع يؤهلهم لنقل الحضارة الغربية إلى مزارعي النخيل. لكنّهم جلبوا، على أية حال، حكومة ممتازة. فقد أعادوا القانون والنظام، وأخمدوا كل نوع من أنواع الفوضى بيد قوية. لقد حموا كل مواطن

يحترم القانون، في متابعة نشاطاته السليمة. وفي خلال سنوات قليلة ارتفعت أسعار الملكية بمعدل ثلاثة أضعاف عن سعرها السابق، وبالنسبة نفسها كذلك ارتفعت أسعار التمور في السوق العامة، كما ارتفعت إيرادات الرسوم الجمركية بالقياس الى العهد التركي بمقدار عشرة أضعافها. وفي الحقيقة لم يُبذل أيّ جهد على الارتفاع والنهوض في كل هذا.. لقد كان الإنجاز ببساطة نتيجة قيام حكومة عادلة وقوية، فهي لم تشق طرقاً جديدة، إلاّ أن الطرق القديمة جُعلت آمنة من السلب والنهب. وهي لم تحث الناس على التجارة، ولكنها أصبحت آمنة. ولم يتم تحسين المرافق الصحية، لكن في الأقل اختفى القتل الناجم عن الاغتيال. لقد غادر الأتراك، الجزيرة العربية وبلاد الرافدين مؤقتاً، بعد أن ضيعوا فرصتهم الأولى بفشل ضخم. فإذا ما أرجعهم مسار الأحداث مرة ثانية، فلعلّهم يتعظوا بالحكمة وحسن القيادة ليحسنوا القيام بعملهم بصورة أفضل في المرة التالية.

(٣)
الشيخ العربي

الزائـر العـارض إلى الجزيـرة العربية يـرى حكماً يبـدو له وكأنه حكم استبدادي صرف. وشـيخ القبيلة العربية يمارس سـلطة مطلقة (وهو الذي يقتل مَنْ يشاء، ويدع من يشاء يعيش). ينطبق هذا الوصف عليـه، كـما كان ينطبق على نبو خذ نصّر، فقد مُنح سـلطة غير محدودة، وما من هيئة تشريعية تعوقه، وما من سلطة قضائية تقلقه، فهو يمارس مهـمات كل إدارات الحكـم، ولديه قوة الحياة والمـوت على كلّ فرد في القبيلة، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً. إنه غير مسؤول أمام أيّ شخص، وهذا يعني، بالطبع، وشـأنه شأن الحكام الشرقيين، أنه سيكافئ أحياناً الخدمـات التافهـة بمنن كبيرة فـوق العادة، والأعـمال الشريرة التافهة بعقوبات شـنيعة ومريعة. إن الإصرار على انتهاج سـبيل آخر، في نظر القَبَـلي، ما هو إلاّ تحديد لسـلطة الشـيخ المطلقة وغـير المعاقة. إن لدى شيخ القبيلة مرؤوسون ومستشارون، لكنه غير مقيّد بهم، فمسؤوليته كاملة غير مقسّمة وسلطته مطلقة.

الحكـم في القبيلة العربية وراثي، فإذا مات الشـيخ ينتقل الحكم

إلى ابنه الأكبر، حسب ما يقتضيه العرف. وكثيراً ما يحدث، على أية حال، أن الأب يتنازل، ويساعد في انتقال السلطة إلى خلفه، حتى وإن كان أجله ما يزال بعيداً. وهناك حالات، يكون فيها الإبن الأكبر بلا قوة بصورة واضحة، وعندئذ يتخذ أحد الأبناء الحكم، حينما يحين وقت التغيير. فإذا لم يكن أحد الأبناء قد بلغ سنَّ الرشد، فان شقيق الشيخ يأخذ زمام الأمر، ولكنَّ تغييراً كهذا، لا يعدو أن يكون إلاّ مؤقتاً، وسيخلف هذا الشقيق، إبن أخيه: الإبن الأكبر، لأكبر أبناء الذرية السابقة. هذا الترتيب ثابت لا يتغير على الإطلاق. فالحاكم الأكثر قدرة هو الرجل المطلوب وهو الرجل الذي يستوثق منه في آخر الأمر، وما من أحد يعير اهتماماً كبيراً، لأيّة عائلة ينتسب.

إن تنظيم العرب في قبائل، وتأسيس حكم قبليّ، قديمان جدّاً بلا شك.. وبقدر علمي، لا يوجد أدنى أثر في أيّ مكان في العالم العربي، إلاّ ووجد فيه نظام قبلي. ليس هناك من شيء يمنع الأفراد من أن يعيشوا منفصلين عن القبيلة، ولكن لا يمكن العثور على أفراد كهؤلاء. فقد يترك العربي أحياناً إحدى القبائل، وينخرط في قبيلة أخرى، لكنَّ ولاءه، سواء أكان يعيش في صحراء أو واحة داخلية أو ضمن جماعة ساحلية، هو لشيخ تلك الجماعة، أو رئيسها. يمكن أن نجد منصب شيخ في كل مكان في الجزيرة العربية، حيث تختلف أهمية هذا المنصب إلى حدّ كبير، وهو يتراوح من زعامة مجموعات صغيرة من البدو الفقراء، أو القرويين، إلى المشايخ الكبيرة على الساحل الشرقي.

وحين يوسّع حاكم عربي من سلطته، بالتغلب على مناطق شاسعة فان الحكومة المركزية التي ينصّبها ما هي إلا ببساطة توسيع لمبدأ ما تقوم عليه حكومة مشيخة محلية، أما القبائل التي تخضع، على

انفراد، إلى سلطته، فتستمر في أغلب الأحيان تحت إمرة شيوخهم هم، كما في حالة إبن سعود. فبصفته (أي إبن سعود) أميراً على المملكة في نجد، فإنه جعل معظم المناطق الشمالية من الجزيرة العربية، وشمال شرقيّها تحت حكمه. وعلى هذا فان حكومة المشيخة تتعايش، وكانت تتعايش منذ أقدم العهود، إلى جانب وحدات سياسية أكبر أو أكثر اندماجاً، سواء تحت سلطة الخلفاء القدامى، أو النجديين المتدينين، أو الأتراك أو تحت الحماية البريطانية. أكثر من ذلك، فإن الدلائل تشير إلى أن العرب نجحوا في تطوير نظام سياسي يتكيّف وحاجتهم، مهما بدا غير مناسب في عيون الغربيين في بعض بنوده.

الجزيرة العربية في الوقت الحاضر تتألف سياسياً من عدد من الوحدات محددّة بشكل غير دقيق، ومتطابقة تقريباً مع التقسيمات الجغرافية. فحدود تلك الممالك والمشيخات، وهي ليست أكيدة ومستقرة في أيَّ وقت، بل في حالة من التغيّر المتواصل. من جهة أخرى.. أنتجت الحرب العالمية (الأولى) والتي أسفرت عن طرد الأتراك النهائي، وتوسّع النفوذ البريطاني، وقيام أنظمة القومية العربية، أنتجت تغيّرات ملحوظة في التحالفات القبلية، وفي الحدود. وهذه مجرد إشارة صغيرة على ميول الأوضاع نحو استقرار مكين.

يشكل جنوبي الجزيرة العربية وغربيّها، شريطاً من الحدود يبلغ عرضه حوالي مائة ميل ويمتدّ على طول الساحل وحول رأس الجزيرة العربية ويشمل من شمال إلى جنوب: الحجاز مع مينائها المزدهر جدّة، ومع المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وهي مملكة الحجاز التي يحكمها في الوقت الحاضر حسين شريف مكة، الذي وهو بدافع الإعانة المالية الكبيرة التي تقدمها له بريطانيا، وبدافع اللقب الذي أعطاه لنفسه:

(ملك العرب) يرعى مخططات طموحة كثيرة، وحتى أنه طالب بالخلافة نفسها، منذ أن تخلّى عنها الأتراك. كما يشمل ذلك الشريط من الحدود، الذي ذكرته آنفاً، منطقة عسير إلى الجنوب، وهي بالكاد تعتبر وحدة سياسية، فقد انقسم ولاؤها بين الادريسي، الحاكم المحلّي، وبين حكام الممالك المجاورة: الحجاز، ونجد، واليمن.

ويأتي بعد ذلك بالتسلسل، البلد الجبلي الإمامي: اليمن وهي تقع في نهاية الجزيرة، ومن ثمَّ عدن المحمية البريطانية. لكل قطاع من تلك المناطق، بالطبع، ميزات محلية خاصة به، إلاّ أن أوضاع وظروف الحياة في بلاد تتأثر كثيراً، كما في الجزيرة العربية، بالمناخ وسمات سطح الأرض فيها، تجعلها متشابهة في كل بقعة منها.

أما النظام السياسي الذي يعيش تحت ظله العربي، فمتشابه أساساً في شرق أو غرب الجزيرة العربية. ففي كل مكان، تكون سلطة الحكومة المحلية بيد الشيخ، والشيوخ الأكثر طموحاً في المناطق الموحّدة، هم ببساطة شيوخ مبجّلون. إن فهم هذا النوع من الحكم يعطينا مفتاحاً لكثير مما يشوّشنا في حياة العرب.

إن الظاهرة السياسية البارزة، في وسط وشرقي الجزيرة العربية، خلال الخمس والعشرين سنة الماضية، كانت ظهور حكم إبن سعود أمير المملكة الوهابية، في داخل الجزيرة العربية. ما تزال توجد أجزاء لم تدخل ضمن هيمنته، ولكن إسمه مشهور ساحرٌ في جميع أنحاء المنطقة. إن كشفاً موجزاً عن تاريخ هذه المملكة سيعطينا نظرة عميقة في ميزات القيادة وفي مهمات الحكومة، ومهما اختلفت عن المعايير الغربية، فإنها أمور أساسية في النظام العربي. إن الوضع الاعتيادي لشبه الجزيرة العربية المأهولة بأناس فردانيين مستقلين بأنفسهم، ومرتبطين بدون

إحكام، بقبائل متعادية، وكل قبيلة موالية لشيخها هي.. يبدو مثل هذا الوضع في عين الغربي نوعاً من الفوضى. ما من شيء يوحّد رجالاً من هذا الطراز إلاّ شخصية قاهرة تنال ولاء عواطفهم، لأنه حكيم وقوي بما فيه الكفاية، حتى يستحقّها. ومن فترة إلى أخرى يظهر رؤساء كبار من هذا النوع في الجزيرة العربية، وبمثل رئيس كهذا، يتعلّق العربي ويعطيه ولاءً لا حدود له.

لا بدَّ أن محمداً كان رجلاً من هذا النوع، ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا لم يظهر له مثيل. ومنذ أيام الخلفاء الراشدين، الذين خلفوا محمد في المدينة، حتى السنوات الأخيرة لم تظهر حكومة مركزية قوية في شبه الجزيرة العربية، ولكن باستثناء واحد، هو الامبراطورية الوهابية التي بنتها السلالة السعودية خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر. وكما كانت خصائص مثل هذا التطور في العالم الإسلامي، فإن هذه الإمبراطورية الكبيرة، نتيجة لذاك النوع الشديد، من الانبعاث الديني. يكفي أن أذكر هنا، أنه بعد أن توسعت سلطة آل سعود الأولى داخل الجزيرة العربية حتى شملت معظم أجزائها، وبعد أن تولّت أمور مناطق واسعة لدرجة جعلتها تهدّد الامبراطورية التركية، انهارت تلك السلطة أمام غزاة أجانب، ودمّرت العاصمة الدرعيّة تدميراً كاملاً. إلاّ أن انتصار الأتراك لم يَدُمْ طويلاً، حيث انسحب إبراهيم باشا الذي تغلّب على العرب، وفي حدود عام ١٨٢٤ أُعيد بناء العاصمة في الرياض، ليس بعيداً عن موقعها القديم، وأعيد تأسيس الدولة الوهابية.. إلاّ أن سلطتها بقيت إلى حدّ ما مجرد سلطة بالاسم تقريباً، وعلى مدى خمسة وعشرين عاماً لاحقاً كان تاريخ الجزيرة العربية سجّلاً قاحلاً إلاّ من

الحروب القبائلية، والاغتيالات والركود.

وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ظهر رجل يُدعى إبن رشيد في حائل، وهي واحة تقع شمالي الرياض. كان في البداية، موظفاً تحت إدارة الحكم السعودي الذي أُعيد تأسيسه، بيد أنه أصبح مستقّلاً فيما بعد، وتبعته كل مناطق الجزيرة العربية الشمالية. كان إبن الرشيد ولسنين عديدة أسطع نجم في السماء العربية، ومن ذلك التاريخ فصاعداً، تعاظم التنافس بين حائل عاصمة جبل شمّر في الشمال وهي تحت حكم عائلة الرشيد، وبين الرياض عاصمة نجد في الجنوب وهي تحت حكم العائلة السعودية. كانت النجمة الشمالية في صعود لمدة خمسين سنة، إلى عام ١٩٠١، عندما ظهر في مشهد الأحداث، إبن سعود حاكم نجد الحالي.

ليس من الضروري الدخول، في تعقيدات الوضع التي أوجدها التنافس الشديد.. فقد كان آل سعود في انكساف لفترة قصيرة، وكان والد الأمير الحالي، وأولاده يعيشون في المنفى، لدى شيخ الكويت: مبارك، ولا يخضعون لسلطة آل الرشيد.

أخيراً، ظهر منذ اثنين وعشرين عاماً، في عام ١٩٠١ في الرياض، رجل أكبر من إبن رشيد إلى حد كبير. حقاً، إنه مدعاة للتساؤل ما إذا كان قد ظهر في الجزيرة العربية رجل امتلك قلوب العرب مثل عبد العزيز بن فيصل آل سعود، وباختصار إبن سعود، منذ أيّام النبي محمد. لقد فاز بيسر بالسيطرة على الإمارة الوهابية في نجد، وكان هو الوريث الشرعي لها، وكان هو بالفعل قد وسّع من رقعة هيمنته على جميع الجزيرة العربية الداخلية. ففي مدة عشرين عاماً فحسب، أخرج الأتراك من الأحساء، والقطيف على الخليج الفارسي، وخلع عائلة

الرشيد في حائل، واستولى على أجزاء من ساحل القراصنة على الخليج الفارسي، كما استولى على عسير في جنوب الجزيرة العربية. لا يزال إبن سعود شاباً بعد تلك الأعمال الجريئة، وهو يأمل بلا شك في النهاية بأن يحكم إمبراطورية عظيمة عِظَم إمبراطورية أسلافه.. وإذا أُخذت الحوادث الأخيرة كمؤشر، فإنه كما يبدو مقدّراً له أن يوحّد عملياً كل الجزيرة العربية. كان يشايع إبن سعود ولاء يفوق الوصف، أما القصص عن عدالته ونفوذه، فتشكّل فصلاً جديداً في (الليالي العربية) في الوقت الراهن.

إن هذا الرئيس النادر المثال، ينال الإعجاب والولاء من رعاياه، الكبير منهم والصغير لدرجة مدهشة.. ولديه عدد من الأخوة ولكن يبدو انهم جميعاً ليس لديهم طموح سوى الابتعاد عن منافسته ومساعدته بأية طريقة يقدرون عليها. الجنود يحبونه حباً جمّاً، وهم لم يتعبوا قطّ من كيل المدح له. انهم يحبون رواية تلك المسيرات الطويلة الشاقة تحت قيادته في الماضي وهم متلهفون للقيام بها مرّة ثانية، عندما كان الرجال يسقطون من جمالهم وقد أنهكم التعب وعدم النوم إلى أبعد حدّ. إنهم يروون قصصاً عن مآثره العسكرية العجيبة، ومن تلك القصص المفضلة لديهم، قصة المعركة التي وقعت إلى جوار الأحساء، عندما جاء من الرياض، حيث يستغرق الطريق خمسة أيام للقوافل السريعة، إلاّ أنه قطعها بيوم ونصف، وقلب الاندحار إلى انتصار بوجوده الشخصي.

ويقال ان طريقته المعتادة حين يهاجم عدوّاً، هي أسر كلَّ من جاء من تلك المنطقة في العاصمة، ويبدأ مع جيشه بسرعةٍ كبيرة يصعب معها على الرسول أن يسبقهم، ثم يهجم على العدو مباغتة

ويهزمه تماماً. بالطبع لا يمكن تصديق كل تلك القصص بالكامل، لكن يجب أن نتذكر أن إبن سعود قائد حقيقي، لأنه أولاً، قاد ثلاثمائة من أعراب الصحراء ضدَّ مدينة مسوّرة هي الهفوف عاصمة الأحساء، وطرد كتيبتين من الجنود الأتراك. ولأنه ثانياً، وحّد القبائل المتحاربة في الجزيرة العربية، في حين لم تكن موحّدة منذ عهد النبي محمد، ولأنه ثالثاً، استطاع أن يدير شؤون البلد إدارة حسنة جداً حيث ازداد سعر الملكية الى ثلاثة أضعاف. إن إبن سعود أكثر من ذلك، فهو واحد من الذين وُلدوا ملوكاً، في العالم.

جاءت الذروة المنطقية لنجاح عشرين عاماً في السنة الماضية، في حملة طويلة ومنهِكة لاحتلال حائل. لقد أصاب القحط والجفاف الجزيرة العربية لمدة سنتين، ماتت بسببها الجمال والخيول بالمئات. وقد انتهز الرجال في حائل فرصة حلول شهر رمضان للحصول على قافلتين من المؤن لإدخالها إلى المدينة المحاصرة، ولكن.. على الرغم من الجفاف والقحط، وعلى الرغم من عدم وجود وسائط نقل إلى درجة اليأس، وعلى الرغم من العبء الاقتصادي الذي كاد يفلس المملكة، إلاَّ أن العرب تحت إمرة إبن سعود صمدوا، وسقطت مدينة حائل بأيديهم أخيراً.

نال إبن سعود احتراماً من حسن معاملته للمدينة التي استولى عليها، أكثر مما ناله من القوة العسكرية التي سيطر بها عليها.. فقد جُلِب الأرزّ ووُزّع مجّاناً على الناس الجائعين. لم يسمح ابن سعود بالنهب والسلب، واسْتُدْعيَ الشيعة في حائل على نحو جماعي أمام إبن سعود، فجاءوا مرتعبين خائفين من الإبادة كطائفة مهرطقة، لكنه عاملهم بلطف كبير، وأعطاهم ضماناً شخصياً بحمايتهم، كما وأعطى

لـكل واحـد منهم وثيقة رسـمية مختومة بختمه الشـخصي. لقد ضمن لهـم ذلك، طالما بقوا مواطنين يلتزمـون بالقانون ويطيعونه، كما ضمن لهـم أن سـلطة الحكومة كلها سـتصون حياتهم وممتلكاتهـم. لقد اقتنع الناس بأجمعهم أن تغيير الحكم كان إلى الأفضل، وقد تعلّقت القلوب بابـن سـعود بطريقة لا تصدَّق في الغالـب، حتـى أن الناس في بلد بعيد كبلاد الرافدين، بدأوا يتسـاءلون فيما إذا كان هذا الرجل، إبن سـعود، سيجعل من نفسه ملكاً صالحاً لبلدهم الحائر.

على أية حال، إن لإبن سـعود الذي استحوذ على خيال العرب، كثيراً من الأعداء السرّيين، لم يشـهد مثله شـخص لعقـود وقرون. إن العـربي، بما عُرف عنه من فردانية لا يتحّمل حتى حكمه بدون اسـتياء وسـخط. جاء إلى مستشـفى الإرسـالية في البحرين قبل سنوات قليلة إعرابيـان ادعيـا أنهـما من رجال إبن سـعود. إنهما لا يكذبـان، فهما من رجال إبن سعود بالضرورة إن لم يكن بالاختيار، وقد جاءا الى البحرين: الخصـم اللدود لابن سـعود ولمطامحه، وكما يقـول العرب (يموت إبن سعود كل شهر في سوق البحرين). ومن الإشاعات المتكرّرة عن موته، إشاعة قيلت عندما كان هذان الرجلان في المستشفى، ولعجب الجميع فإنهـما كانا مبتهجين جداً من الخبر، وحينما سُئلا عن سـبب ابتهاجهما أجابـا، بعد أن تلفتا في كل اتجاه خشـية أن يسـمعهما أحد: (الحمد لله، والآن هو ميّت إن شـاء اله !. لماذا منـذ أن تولّى ذلك الرجل الحكم، لم يغز أحد عدوّاً، ولم يسرق أحدٌ حتى دجاجة. ما من شيء نعمله سوى البقـاء في البيت كالنسـوان). من الواضح، أنه بالنسـبة لهـم فإن الحياة بدون متعها الاعتيادية، بالكاد تسـتحق العيش. ليس هناك الكثير من النـاس مَـنْ هم بهذه الصراحة، ولكن مما لا شـك فيـه، أن هناك عدداً

كبيراً، لديهم مشاعر سرّية، مشابهة جداً.

يمتلك إبن سعود، كقائد، قابلية استثنائية على كسب النفوس ولا سيما نفوس الذين يختارهم لأن يكونوا أمراءه على المدن والأقاليم. إنه قادر، حتى في المناطق البعيدة عن العاصمة أن يضع موضع التنفيذ نفس نوع الحكم الذي كان موفقاً كلَّ التوفيق في وضعه في الرياض. من رجال ابن سعود: إبن سويلم الذي كان حاكماً على القطيف، وهي منطقة شمالي الأحساء على الخليج الفارسي، والذي كان شديداً في بعض الأحيان، ويخافه المجرمون إلى حدّ كبير. وحينما رجع إلى مدينته المحبوبة: الرياض في زيارة لها، بعد غياب عدّة سنوات، توسّل إلى (الرئيس الكبير/ ابن سعود) أن يسمح له بالبقاء في الرياض، وأن لا يعيده إلى القطيف. في الواقع إنه انهار وبكى في حضرة حاكمه، بينما كان يفكر بمغادرة مدينته التي يحبّها كثيراً مرة ثانية، ومغادرة الصحراء المكشوفة وهي جزء من حياة كل عربي في الداخل الصحراوي. ولكن حينما أخبره رئيسه، أنه لا يوجد أحد غيره، ليرسله إلى هناك، عاد بدون تذمّر، وهو هناك في الوقت الحاضر، في خدمة (الرئيس الكبير) بولاء لا حدود له، وهو يحكم بروح خيّرة جعلته أباً لكل الناس.

إلا أن ممثل إبن سعود الرئيسي، وأكثر حكام شرق الجزيرة العربية قوة، هو إبن جلوي حاكم الأحساء. وهو رجل متميّز بطريقته الخاصة، مثل (الرئيس الكبير نفسه) وولاؤه لابن سعود، وعدالته التي لا تعرف الرحمة، أصبحا مضرب الأمثال، في كل أنحاء ذلك البلد. زرتُ قبل ثلاث سنوات، الهفوف عاصمة الأحساء، حينما كان إبن سعود فيها. إن الشيء الأول الذي يجب أن يقوم به شخص غريب، لدى دخوله مدينة عربية، هو الذهاب وتقديم التحايا الرسمية للشيخ

الحاكم. بناء على الظرف زرنا بالطبع أولاً إبن سعود، الذي كان في غرفة صغيرة مع إبن جلوي وكانا وحيدين. كان إبن سعود يجلس على مقعد طويل عاديّ في غرفة تشبه غرف التشريف العربية في كل مكان. دعاني ابن سعود للجلوس إلى جانبه، وهي العادة الاعتيادية في تكريم ضيف شرف، لكنَّ إبن جلوي لم يكن يجلس على ذلك المقعد، بل كان يجلس على الأرض في الجانب الآخر من الغرفة، وما من شيء يحثه للجلوس في مكان الشرف إلى جانب رئيسه، على الرغم من أنه توقّع تماماً أن أجلس هناك، وتغيّر إلى حدّ ما، ذلك الوجه البارد الخالي من الرحمة من جرّاء الحبّ والولاء اللذين شعّا منه.

في العهد التركي، قبل احتلال الأحساء من قبل إبن سعود وقواته الدينية الزاحفة من داخل الجزيرة العربية، كانت هناك سلسلة متواصلة من الحكام غير الكفوئين والفاسدين الذين حكموا منطقة الواحة الأحسائية هذه، والتي يبلغ سكانها حوالي مائة ألف نسمة. وحينما عُيّن إبن جلوي قبل عشر سنوات، كانت الأوضاع المحلية على قدر كبير من الفوضى، فالبدو يسلبون وينهبون المنطقة متى شاؤوا، لدرجة أنهم دخلوا حتى العاصمة: الهفوف نفسها. لقد انقسم المجتمع إلى عصابات وفرق، وكان القتل والسرقة جاريين على قدم وساق.

كان من أوّل أعمال إبن جلوي، هو طرد الرجال الأغنياء والتجار الذين حضروا بأعداد غفيرة لتحيته في صالة الإستقبال. قال لهم شارحاً: (لا نريد أيَّ واحد هنا، ما عدا مَنْ كان في شغل. إنني حريص على ألاّ أشكّل صداقات قد تتعارض مع أداء حكمي العادل بين الأغنياء والفقراء). ليس لهذا الرجل مرتّب، ولكنه يتسلّم أجور صيانة مقرّه. تاجه مقعد طويل مصنوع محلياً وخالٍ من التنجيد، ومخدّة

صغيرة بسيطة هي كل ما لديه من رفاهية. أما ملابسه فليست ناصعة ولا حتى متقنة الصنع. لماذا يشغل الإنسان باله بأمور كهذه، ذلك ما لا يفهمه الأمير ابن جلوي. إن شعوره بالمسؤولية والواجب رائع، ولقد ترك عائلته للمجيء إلى الأحساء، وتولّي منصبه الحالي.

ومنذ تعيينه عام ١٩١٤، لم يكدْ يخرج أبعد من حدود المدينة، ما عدا مرّة واحدة، في مهمة رسمية إلى العقير، ومرّة ثانية حينما جاء رئيسه ابن سعود في زيارة رسمية، فاستقبله إبن جلوي ورافقه عبر بوابات سور المدينة كشاهد على ولائه الودّي. سيكون مندهشاً لو وُصِف له إجراؤه هذا بأنه تفانٍ فوق العادة في واجبه. لم يكن يخطر ببال ابن جلوي أن يؤدي واجبه بأية طريقة أخرى. وحين سألته، فإنه لم يَرِدْ أن يعترف بشعوره بالوحشة بعيداً عن مدينته الرياض، أو لم يعترف حتى بشعوره بافتقاد أبنائه. مع ذلك فحينما أخبرته كم كان ولده صبيّاً صغيراً رائعاً، وكيف أن (الرئيس الكبير) إبن سعود، استمتع بجلوس الشاب الذي ظهرت عليه أمارات الرجال، إلى جانبه على المقعد الملكي.. حينما أخبرته بذلك، أشرق وجه ذلك الحاكم الرهيب بتعبير نمَّ عن قصة أكثر حقيقية، مما ينّم عنه لسانه المتحرّر.

يحكم هذا الرجل ـ إبن جلوي ـ بقضيب من حديد، وفي أيّام حكمه الأولى لم يكد أبداً يقوم من مقعده في حجرة المحكمة بدون أن يساقَ مذنب ليجلد أو لتُقطع عنقه. كان بلا رحمة تماماً، وقد تحدّث لي بدو الصحراء القساة عن أفعاله بأصوات مكتومة. دُعيت القبائل التي جعلت الحياة في الأحساء مفجعة، للاستسلام، وحينما رفضوا، أُخرجوا من ممتلكاتهم ليهيموا على وجوههم في الصحراء، وليجدوا سكناً لهم في مكان آخر. إن سلطة ابن جلوي المطلقة تظهر على أشدّها

وضوحاً في الواقعة التالية: كانت قافلة بدوٍ صحراويين، وهي تغادر واحة الأحساء، قد أهانت وضربت أحد القرويين، وكان هذا قد رفض الانصياع لرغباتهم في شيء تافه، وقد وقعت الحادثة في الأيام الأولى قبل أن يقام الدليل على مَنْ هو الأقوى: غريزة الصحراء الخارجة عن القانون، التي كانت أكثر مما كان يتحمّلها الأتراك، أم إرادة الحاكم الجديد الذي كان قد عقد العزم على السيطرة على البلد وحماية كلّ مواطن حسن السلوك. تمَّ تعقّب القافلة بأمر ابن جلوي وأُرجعت إلى العاصمة، كما تمت مصادرة بضائعها وجمالها وحُجز الرجال في صحن دار واسعة فارغة.. وهنا طلب الحاكم من أصحاب البساتين أن يجلبوا سعف نخيل أخضر (الخضر) وأخذ رجال تلك القافلة المنحوسة واحداً بعد الآخر، ونُزِعت عنهم ثيابهم، ثم رُبِطوا بأوتاد، وجُلِدوا وراحوا في غيبوبة، نازفين مرتخين كالعجين. وكان قد سُمح لنساء القافلة بمراقبة هذه المجريات من ثقوب الباب، فملأن الهواء بالصراخ والبكاء، يطلبن الرحمة.. لقد مزّقن ثيابهنَّ وقطعن شعورهنّ، ورمين التراب في الهواء في نوبة هلع وغضب، أثناء ما كنَّ يراقبن أزواجهنَّ، وإخوانهنَّ وأبناءهنَّ، وهم يضربون إلى درجة الموت. وحين تمَّ إيقاع العقاب المناسب، أُعطيَ كلُّ رجل غائب عن الوعي إلى عناية عائلته. وبعد هذه الحادثة، اتخذت السلطة القانونية شكلاً جديداً واحتراماً لا يخلو من خوف، بين معشر البدو.

ما من حاكم في كل الجزيرة العربية، بعد (الرئيس الكبير) نفسه، نال رضا الأعراب، كما ناله حاكم الأحساء الصارم النزيه هذا. إن الناس هنا، يُعجبون بما يروون عنه يوم تسلّم شكوى من قروي جاهل، قَتَل بقرته جماعة من الصبيان كانوا في رحلة صيد، حيث لم يكن

القـروي يعرف إسـم الجاني، لكنه شـاهده في ذلـك الوقت. وبوصف دقيـق للجماعة، أصبح من الممكن جمع كل الأفراد أمام الحاكم. سُـئل القرويّ إن كان يستطيع تعيين هوية الولد المتهم، وعندئذ أشار القروي بإصبعـه الى الجـاني، بـلا أيّ عناء، ولكـن الرعب أخذ منـه كلّ مأخذ عندمـا علـم أن المجرم، هو ولدٌ لإبن جلوي نفسـه. هنا شرع القروي بالاعتذار، وبإسراف، ولكنه لم يُسمحْ له بالاستمرار.

ـ (هل فعلتَ هذا؟) سُئل الصبي بصرامة.

ـ (نعم فعلتُ).

كان للصبـي فـرس رائعة، وهي آخـر هدية له من والـده، فأمَر الأخـير وجيء بها. وسـأل إبن جلوي القروي بأفضـل ما يكون عليه اللطـف: (هـل لـك أن تعتبر هـذه الفـرس تعويضـاً مناسـباً لبقرتك المفقودة؟).

كانت الفرس، رائعة، وأغلى ثمناً بكثير من البقرة التي قُتِلتْ.

فأجـاب القروي: (بكل تأكيد. سـعرها أعلى بكثـير من المرات من سعر البقرة، لكن أرجو أن تعذرني عن أخذها. لو كانت لديَّ أدنى فكرة عن الجاني، لما قدّمت شكوى، تحت أية ظروف).

(ما من شـك!) أجاب إبـن جلوي بابتسـامة، وأضاف: (ذلك حق، لكن مع ذلك، لن نعذرك إنْ لم تأخذها. يجب على الصبي، علاوة عـلى ذلـك أن يعتذر لك اعتذاراً لا حدود له، وإذا سـمحت أن تكون الفـرس تسـوية للقضية، فسـأكون مديناً لك بصـدق). وهكذا اعتذر الصبـي، وقـاد القروي الفـرس. كان قلـب الصبي يتفطّـر في الغالب من ضياع فرسـه الجميلة، ولكن لم يمرَّ زمن طويل، حتى اشـترى إبن

جلـوي، الفرس له ثانية، بعـد أن دفع ألف ريال للقـروي، وهو مبلغ يكفي لأن يجعل القروي غنيّاً مستغنياً لبقية حياته.

إن اسم إبن جلوي من الأسماء المهمة في جميع أنحاء شرق الجزيرة العربيـة، فضراوته في التخلّص من الجناة والمتمردين أضحت مضرب الأمثال. استمعت في ليلة ما، في حجرة الاستقبال العمومية، لنقاش مفتـوح بـين بدويّ مـن الصحراء، وبين هـذا الحاكم الرهيـب، يتعلّق بحادثة وقعت قبل سـنوات قليلة. تسـلّم إبن جلوي رسـالة، بينما كنّا جميعاً جالسـين هناك، وفيها خبر اشـتباك بين إبن سعود وأعدائه، وقد كان النصر حليف إبن سـعود، وعندمـا أعلن الحاكم ابن جلوي النبأ، أضاف بعض التعليقات، معيداً للأذهان، أنه في نفس المنطقة المجاورة تلك، كانت هناك قبيلة معادية لابن سـعود، قبل سنوات قليلة. وكان بـين الحضور، بدوي فظّ ينتسـب إلى تلك القبيلة مـدار النقاش، وعلى الفـور، دافـع دفاعاً مسـتميتاً. ان الإنسـان (الغربي) لا يعـدم أن يرى عجائـب الأشـياء في الـشرق. فهنا، لا ريـب، رجل من أكثـر الرجال إرعابـاً في كل أنحـاء الجزيـرة العربية، وبين يديه سـلطة الحياة والموت عـلى آلاف الرجـال، رجل يجلد المجرمـين إلى حدّ المـوت، إذا ما رأى المصلحـة العامـة تقتضي ذلك.. رجل جعلتْ قسـوته الشـديدة البدو العصـاة، هـؤلاء المتطرفين القسـاة يتحدثون عنه بأصـوات منخفضة ومرتعبة في أكثر الأحايين.. في حين أن هذا الرجل نفسـه كان منهمكاً في نقاش روحاني أمام الصغير والكبير، مع بدويّ عاديّ من الصحـراء، في مسألة تافهة من تاريخ الجزيرة العربية الحديث. ما من أحد سواي، كما يبدو، اعتبر النقاش مثاراً للدهشـة، وابن جلوي أقلّهم اعتباراً بأن النقاش بينه والبدوي الصغير كان يستدعي العجب.

استمر النقاش حوالي خمس دقائق، وفي النهاية كان التوفيق حليف البدوي. فقد أنهى إبن جلوي النقاش بشرح شبه اعتذاري للبدويّ الضيف، ذاكراً أنه أراد من وراء النقاش ببساطة أن تكون الحقيقة مفهومة، وإلاّ لما ناقشه. إبن جلوي في موقفه هذا، وكذلك في استعماله للقوة غير المحدودة في الغالب، هو التجسيد الحي لحاكم عربي أمثل، متفانٍ في خدمة مصالح رئيسه من ناحية، وخدمة هؤلاء الذين تحت حكمه من ناحية أخرى.

هذه الدولة النجدية التي بحثنا مجريات أعمالها أعلاه، ما هي إلاّ نظام عربي لحكم قبلي شامل لا لبس فيه. إن الصفات التي مكّنت إبن سعود من الفوز وكسب ولاء القسم الأكبر من سكان وسط الجزيرة العربية وشرقيّها، هي نفس الصفات التي يتمتّع بها الشيوخ المحليّون في أنحاء الجزيرة العربية، كما أن مهمات الحكم التي يمارسها إبن جلوي بفاعلية، وهو على كرسي الحكم في الهفوف، هي نفس المهمات التي تؤول إلى الشيخ المحليّ.

لذا، يعتمد النظام العربي في الحكم على الشيخ بصورة مطلقة، وما دام الحكم قائماً على إدارة شخص واحد فإنه إذا فشل، فشل كل شيء. ليس لدى كل رجل القدرة على تحمّل هذا النوع من المسؤولية، لذا، وكما هو متوقع، فان الرجال الأقوياء، هم الذين ينجذبون إلى تلك المراكز والوظائف. الشرط الأول في هذه الوظائف، هو الشجاعة الجسمانية غير العادية، فما من جبان يستطيع أن يبقى مدة طويلة في منصب كهذا، ذلك أن كل شيخ عربي معرض على الدوام للاغتيال، وبالتالي فإن قوة الأعصاب التي تجعل الرجال ينامون بسلام، حين يملأ الخطر الجوَّ كله، أساسية تماماً. يجب أن يتمتع الشيخ كذلك

بشجاعة معنوية كبيرة، ويكون على استعداد في الطليعة عند حسم المسائل المختلفة التي تنشأ. قد يسأل النصيحة والمشورة، واعتيادياً يفعل ذلك، ولكن المسؤولية في السير في طرق غير مطروقة، وفي تجريب أشياء خطرة وغير شعبية تقع على عاتقه وحده.

ومن الضروري أن تضاف إلى الشجاعة الجسمانية والمعنوية، درجة معينة من الجاذبية الشخصية.. فإبن جلوي حاكم الأحساء رجل قوي جسدياً، ومعنوياً يستطيع أن يواجه الخطر ويعاكس الرأي العام بلا مبالاة، وهو يستطيع أن يواجه في يوم ما الموت برباطة جأش. بيد أن إبن جلوي لا يمكنه أبداً أن يكون شيخاً كبيراً (زعيماً) في الجزيرة العربية.. لأنه ينقصه كل عنصر من عناصر الجاذبية الشخصية. إنه يُبعد عنه من حيث المبدأ العِشرة الوديّة من حجرة استقباله، وما من أحد يحضر، إلاّ لشغل من غير عائلته في الأقل. وابن جلوي يخشاه كل فرد، إلاّ أن الفئات الفقيرة في المجتمع تحترمه كأب ولكن ما من أحد يحبّه. إنه يعيش في جوّ من العزلة الباردة، يُخيل لي في بعض الأحيان أنه من أكثر الرجال وحدة في الجزيرة العربية، وهو الآن رهين شعوره بالواجب والتفاني تجاه رئيسه، ولكن بدون صديق حميم في العالم.

رجل كهذا قد يكون حاكماً على منطقة من الطراز الأول، ولكنه لن يكون قائداً وزعيماً محبوباً. ذلك أن أيَّ شيخ يتصدّى لمهمّة القيادة، أن يستحوذ على حبّ شديد من قبل تابعيه، ولا يمكن لرجل أن يكون قائداً ما لم يرحّب تابعوه بفرصة الموت من أجله. بلا شك ليس كل رئيس في الجزيرة العربية مصبوباً بهذا القالب، إلاّ أن الشيوخ الزعماء هم كذلك. فالفرق بين مبارك شيخ الكويت، وابن سعود شيخ الرياض، هو مجرد هذا الفرق. كان الشيخ مبارك، شيخ

الكويت الراحل، رجلاً ذا دهاء، وحاكماً كفوءاً تماماً. فعدل حكمه وقوّته في الكويت مشهوران في كلّ أنحاء الخليج، ولكن ما من أحد أحبّه، وسيطرته لم تمتدّ أبداً أبعد من الحدود التي كانت تابعة للكويت بحكم الطبيعة. كان مبارك حليفاً للإنكليز، وصداقتهم له أثمن من أن تقدّر. ولكن لعدم وجود الجاذبية الشخصية لديه، كان من المشكوك فيه، أنه سيحافظ على نفسه، لو كان رئيس قبيلة من قبائل البدو الصحراويين.

و حتى يكون الحاكم العربي صالحاً، فمن الضروري له أيضاً أن يكون لديه إيمان راسخ بتمامية وكمالية النظام المتبع.. وفي هذه النقطة فان إبن جلوي تجسيد للمثال العربي، أكثر من أي شخص آخر. يتطلب الأمر قدراً معيناً من البلاهة، حتى يكون المرء إدارياً مثالياً.. فالرجل الذي يدرس بانتظام، الأنظمة الأخرى، ويرى الأخطاء في نظامه هو، لن ينجح في حكم قبيلة عربية. فالفارسي أكثر ذكاء وأكثر يقظة ونشاطاً من نظيره العربي.. أنه يفوق العربي، في كل حقل فكري يخطر اسمه على البال. ولكن حيثما يَعِيشْ الأثنان معاً، فان العرب هم الذين يحكمون حتى ولو كانوا يشكلون نسبة صغيرة من السكان. ويوجد سبب لهذه الحقيقة، فقدرة الإيراني بالذات على ما يربّى عليه ذهنياً هي التي تجعله عاجزاً عن المهمة. بينما العربي، من ناحية أخرى، مأخوذ بنظام الحكم الإلهي المطلق.. إنه مكتوب في القرآن. والغربيون الكفرة الذين يختلفون عنه، حمقى وعمي، وهو غير آبه بحماقاتهم.

وكنتيجة لذلك فإنه يدير البلد على الخطوط المحددة التي وضعت في نظامه بكفاءة كبيرة. فالعدالة يتّم التعامل معها بيد قوية كالحديد، ولكن وفي نفس الوقت مرنة مثل المطاط. النظام العام

محفـوظ، والفقراء محميّون من جشـع الأغنياء، والعلاقات بين القبائل المتجـاورة متواصلـة. السـلام يسـود، والحرية مضمونة لـكل مواطن حسـن السـلوك، والجنـاة مروّعـون حتـى يذعنـوا، بعدالـة مضرّجة اليدين، لا يتحملها أي ضمير (غربي). النتيجة: سلام وقناعة، لا نكاد نحن في الغرب نبلغهما. أما الإيراني، فانه يبحث المزايا النسبّية للبرلمان الإنكليـزي والبرلمان الأمريكي، بينـما تضرب الفوضى أطنابها في جميع أنحاء منطقته.

المراقب الخارجي الذي يرى كلّ هذه الممارسـة للسـلطة يستنتج بـأنَّ هنـاك قليـلاً أو لا شيء في نظام الحكم العربي ما عـدا نظاماً ملكياً غـير محدود، وأن الآراء الديمقراطيـة، قد هُدِرتْ بلا رحمة. ولا يوجد في الظاهر إلا طغيان كامل. فسـلطة الشـيخ لا حدود لها، ويسـتعملها على هواه وبدون تردد. إنه بطيغان قيصر.

لكن لا توجد أخطاء أكبر من هذه الأخطاء في الحكـم المتسرع على النظام القبلي العربي في إدارة شؤون الدولة. ولفهم كم هي بعيدة تلك الأحـكام عن الواقع، وكم هي فعالة زواجر الحكـم العربي وضوابطه، فمـن الضروري، ذكر بعض ميـزات الحياة العربية. قبل كل شيء، فإن الحياة البشرية رخيصة إلى حدّ بعيد، في الجزيرة العربية، كما هو شأنها في كل مكان في (الشرق). فالحقيقة هي، أنه لو قَتل الشيخ إنساناً واحداً، أو عشريـن، فلا يسـبّب ذلك إذا أخذنا معدل المجمـوع، أرق العربي، لمدة ربـع سـاعة، ولا ربع دقيقة، بلا شـك. أما الصفـة الثانية في حياة العربي وذهنيّته، فهي فردانيته المتطرفة ذات الروح الاستقلالية. ما من قوة أجنبية سـيطرتْ على البدو مطلقاً. لقد غزا إبراهيم باشا، قبل مائة عام، الجزيرة العربية، وحافظ على أثر طفيف من السلطة بالرياض، إلاّ

أن مـدة حكمه كانت قصيرة، وان الأرض لا البشر هي التي خضعت لـه. في فترات قليلة فقـط، في تاريخ الجزيرة العربية نـرى فيها العربي، يتخلّى عن اسـتقلاليته القبلية، بما يكفي لجعـل الوحدة الوطنية ممكنة. فالوضع الاعتيادي، هو حرب قبليّة منوّعة، لا نهاية لها.

حقّاً إن الشـيخ يسـتخدم قوة الحياة والموت على هذه المجموعة مـن الناس المحبّـة للحرية والفردانية، وهي نفس القوة التي تسـتخدم ضـده أيضاً. يتوقع رجال القبائل حكماً قوياً وفعالاً، كما ويتوقعون من الشيخ أن يحمي الفقراء من جشع الأغنياء، وأن يحافظ على النظام العام كـما على العلاقات مع القبائل المجـاورة. فإذا لم يقم بكل تلك الأمور، ولم يسـتطع المحافظة على النظام العـام، وإذا كان هناك قتلة وسرّاق في القبيلة، وإذا ما اسْـتُغِلّ الفقراء بسـبب ضعف الشـيخ لدرجة لا يقدر معها على منعها، وإذا ما انتُهكت الحدود القبلية من قبل قبائل مجاورة، عندها تظهر مجموعة من الرجال الساخطين، يقودهم فرد ما، يرغبون في أن يكـون رئيسـهم، ليحلَّ محل الشـيخ، الذي فشـل في تحقيق تلك الأمور. فإذا استمرّت الفوضى، وتعاظم ظلم الأغنياء والأقوياء، فان تلـك المجموعة من السـاخطين، تكـبر، وحالما تصبـح أكثرية لا بأس بهـا في القبيلة، متعاطفة معها بالسّر، يتم اغتيال الشـيخ الحاكم ويأخذ رئيـس تلـك المجموعة مكانه. تتقبـل القبيلة الحاكم الجديـد، تماماً كما كانت قد تقبلت سلفه، وتطلب منه ما كانت تطلبه من الشيخ الراحل سـواء بسـواء. فإذا كان قادراً على تسـيير الأمور على ما يرام، فستتبعه القبيلة بكل الحماسـة والتفاني، اللذين يطلبهما. وإذا ما فشل، فستكون مدة حكمه قصيرة، وسيُقتل كما حدث لسلفه. إن النظام العربي، ليس نظاماً استبدادياً مطلقاً. إنه إدارة جماعة، بشخص واحد، بصورة فعالة

لم يسبق لها مثيل، وقد يكون الشيخ العربي، مع كل ما لديه من سلطة مطلقة، أكثر حساسية في استخدامها، وأكثر استجابة لإرادة الناس، من أيِّ حاكم في العالم.

وعلى هذا يمتلك العربي نظاماً ممتازاً في الحكم، مع زواجر وضوابط فعالة إلى حدّ بعيد، بالإضافة إلى تصوّر دقيق جداً لمهمات ذلك الحكم. فالمهمة الأولى للحكم أو كما يضعها العرب، للشيخ هي المحافظة على النظام العام، وحماية كل فرد من أفراد القبيلة في كل عمل مشروع، أي كل الأعمال التي لا تنتهك حرمة حقوق ومصالح المواطنين الآخرين. فمنذ زمن غير بعيد، ضرب بعض المتطرفين المتدينين، تاجراً يهودياً كان يسكن في مدينة الهفوف، وبسبب ذلك تمت مصادرة جمال هؤلاء المتطرفين، وعوقبوا عقاباً شديداً. ليس هناك من شخص مكروه في العالم من قبل المسلمين مثل اليهودي، ولكنه كمواطن مسالم، كان له الحقّ بحماية الحاكم، وكان ينال ذلك الحق.

إن القسم الأعظم من السكان في الأحساء هم من الشيعة.. وكطبقة فإن الشيعة هم الوحيدون الذين يبغضهم المسلمون الأصوليون أقلّ من اليهود، لكن يجب حمايتهم، مع كلّ ذلك، ولا يسمح للبدوي من الصحراء بمضايقتهم. ومن المتوقع من الشيخ أن يولي الضعفاء عموماً، اهتمامه الخاص، ليستوثق من أن حقوقهم مصانة بدقة.

أيضاً فإن المِلْكية يجب حمايتها ضمن إطار القبيلة. إن الشيخ والقبيلة لهم أخلاق القراصنة واللصوص خارج نطاق جماعتهم، فكل شيء تقع عليه أيديهم يستولون عليه. لكن ضمن القبيلة، على أية حال، أو ضمن المدينة، فأحد واجبات الشيخ الرئيسية هو التوثّق

من أن كل صاحب ملك آمن في التملّك والتمتع بملكيته ضد كل متحدٍّ مهما كان. أما الرجال الأغنياء جداً، إذا حدث ووُجد أمثالهم في قبيلة، فغير محميين بعناية، كما هو شأن الأقل غنى. وسبب ذلك أمران: أولهما أن الأغنياء يستطيعون توفير الحماية لأنفسهم، وثانياً قد يقع شيخ القبيلة في بعض الأحيان، وإن كان حريصاً على الجميع من اللصوص العسّاسين الخارجيين، تحت إغراء الكمية الكبيرة من الثراء السهل، ولا سيما حينما تكون خزائنه الخاصة قد استنفدت تماماً. على أية حال، فما عدا هذا الاستثناء، فان حماية الملكية الخاصة، كثيراً ما يقوم بها الشيخ خير قيام.

لقد سافرتُ في الجزيرة العربية، في قافلة جمال، وكان أحد الجمال يحمل أربعين ألف روبية. كان هذا المبلغ قسماً من دخل الأحساء من الضرائب، وكنّا في طريقنا إلى الرياض في رحلة تستغرق خمسة أيام عبر صحراء خالية، ولم يكن لدينا أيّ حارس يحمي النقود، ولا توجد في الأقل أية سرّيّة بخصوصها. لقد ساعدت أنا بنفسي في رفع النقود ووضعها على ظهر البعير مراراً. لقد تسلّمها بدوي عادي من الأحساء مع رسالة تبين مقدارها، وقد سلّم البدوي المال والرسالة بعد خمسة أيّام في الرياض، وتسلّم مقابل ذلك مبلغاً متواضعاً. ما من أحد غير الغريب (الغربي) كان مندهشاً من نقل النقود بتلك الطريقة.

إن المحافظة على النظام مهمة أسهل بكثير في الصحراء ضمن حدود قبيلة بمفردها، منها في مدينة كبيرة في واحة. يعيّن الرئيس الحاكم على الواحة، وهذا الحاكم يمارس كل سلطات شيخ محلي، على الرغم من أن الواحة هي تحت سيطرة الرئيس.. فإذا اظهر الحاكم المعيّن عجزاً، تكون نتيجته العزل من ذلك المنصب، قبل أن يغتاله ناخبوه.

وعلى هذا، فربما تعتبر حياته أكثر أماناً من حياة الشيخ في الصحراء، ولكن ثمة أمور كثيرة تجعل مهمته أصعب.

الصعوبة الأولى، هي أنه في لمدن الواحة، حيث توجد جماعات كبيرة من الحرفيين والتجار، وحيث أن السكان هم جميعاً في الغالب حضر مستقرون، فإن التماسك القبلي، والولاء القبلي منعدم.. ومما هو واضح في الواحات أن الولاء القبلي ليس ضرورياً إلى حياة الجماعة، وأكثر من ذلك، فإن سكان الواحة ينحدرون من مختلف الأصول، وقد جذبتهم مدن الواحة لأن ثمة فرصة لهم للحصول على المال، أو ربما للدراسة على يد معلم دينيّ شهير. لا توجد روح مشتركة، في الغالب بين سكان الواحة، وعلى هذا فإن مهمة الحاكم سرعان ما تتوسع وتصبح أكثر صعوبة. ويصبح بالضرورة شيئاً شبيهاً بقيصر، ومن الأهمية بمكان أن نذكر بأن حاكماً كهذا يجلب دائماً تقريباً، من الخارج. وفي ذلك الجوّ، لا يمكن الوثوق بفردٍ هو من المجتمع وفي نفس الوقت ينتمي إلى طائفة محلية، ليحكم بالعدل. وعلى هذا يُجلب حاكم من الخارج فيكون أباً للجميع وقاضياً عليهم.

الانشقاقات بين الأهلين تحدث، أوّل ما تحدث، وفق خلفية دينية. إذ ان السكان هناك يشتملون على كل من الشيعة والسنة، وعملياً، لا توجد بينهما تعاملات مطلقاً، إلاّ بأكثر الطرق التجارية رسمية. أفكارهما الدينية متباعدة تباعد القطبين، وكل فئة تعتبر الفئة الأخرى لا أعلى ولا أفضل من كافرة. لقد أكدوا لي، أنني كنصراني، أحظى بقبول لدى المتكلم أكثر من رفاقه المسلمين مختلفي الآراء، والمهرطقين.

وتشب الاضطرابات بينهما لأقل تحريض، واذا ما وهنت يد

الحاكم، فان القتل ليس بالنادر الوقوع بين الطائفتين. إنَّ مهمة الحاكم في مجتمع كهذا، ليست هيّنة. وتصبح المسألة أكثر تعقيداً، إذا ما تواجد في المدينة، اليهود والنصارى. التعرض لهم متكرر، الأمر الذي يتطلّب من الحاكم كل الحكمة والقوة للمحافظة على النظام العام تحت ظروف كهذه.

توجد في مجتمع الواحات كذلك، إنشقاقات عرقية، حيث هناك عدد من الإيرانيين والبلوش، وبالتأكيد هناك مجموعة كبيرة من الزنوج بعضهم عبيد وبعضهم أحرار. يعيش هؤلاء جميعاً بدون اضطراب، ويجب الاعتراف أن النظام العام في الواحات لا يتعكّر باختلاف الأجناس كما يتعكّر عندنا تحت نفس الظروف.

إن الانقسامات التي تسبب أكبر الاضطرابات في مجتمع كهذا، هي الانقسامات الاقتصادية. فالأغنياء يعيشون في تلك الواحات، وهم أغنياء بالمعايير المحلية، ويبدو أن سرقة الفقراء للأغنياء، أمر طبيعي وله ما يبرّره، وهنا لا يخلو بال حاكم الواحة من قلق بشأن هذه المسألة. فأوّل علامة على ضعف الحاكم لا تتجلى في نشوب اضطراب عرقي أو ديني، وإنما بزيادة السرقات، وحوادث القتل التي تكون السرقة باعثاً لها. ومما يثير العجب أن مجتمع الواحات الكبيرة يخلو من تلك الجرائم. قيل أنه في عهد (مبارك) شيخ الكويت لم تحدث سرقة واحدة على مدى سنين.. أما الأحساء تحت حكم إبن جلوي، فلها سجّل أفضل لحدّ الآن. ولا شك أن النجاح في تقليص حجم الجريمة علامة على وجود حاكم صالح، في حين أن النقد أول ما يوجّه إلى حاكم عاجز عن الحكم بصورة ملائمة، فمحوره بكل تأكيد: السرقة والجريمة اللتان بدأتا بالظهور في منطقته أو قبيلته.

في معظم مجتمعات الواحات، كما في الأحساء تحت حكم إبن جلوي مثلاً، ثمّة حريّة واسعة جداً للتجمعات وإلقاء الخطب، والمواطن حسن السلوك لا يبدو أنه تحت أيَّ ضغط، مهما كان نوعه. ففي مجال الحرية غير المشوّشة في الحياة وما إليها، وفي التنقل، ما من مدينة أوروبية أو أمريكية تفوق تلك المجتمعات العربية. ان هذه الحرية، بالطبع، لا تشمل الدعاية ضدَّ الحكومة أو نشر أفكار دينية جديدة، فالمسلمون ينظرون إلى تغيير الدين، كما ننظر نحن إلى الخيانة، بنفس القدر، ويُعاقب مقترفه بنفس الطريقة.

لذا، فالنظام العام محفوظ بدرجة ناجحة، وذلك شيء جدير بالاحترام، ومن المفيد التمعّن بالطرق التي يستعملها الحاكم العربي، للفوز بنجاح جليّ إلى درجة استثنائية. لقد كُتِبَ الشيء الكثير عن الوحشية الشديدة للعقوبات التي تنزل على الجناة، ولكن نجاح الشيخ يعتمد عليها بدرجة صغيرة. إن الميزة الاساسية الأولى، للطريقة العربية، هي السرعة، إذ من المحتمل أن يد السارق تقطع في نفس اليوم الذي يسرق فيه.

ما من وقت يُضيَّع في الشكليات القانونية. يُجلب الشهود، ويسألون في وقت قصير بإيجاز، ثم يصدر الحكم، وبسرعة ينفذ. ليس هناك اهتمام بالشكليات، كما ليس هناك استئناف. فعلى ضوء المعلومات المتيسرة يصدر الحكم، وسواء أكان دقيقاً أم لا، غير أنه سريع في الأقل، والصلة بين المخالفة والعقاب واضحة جداً، وهي درس لا يخطئه أيَّ فرد. ومن المحتمل أن يترك جسد مقطوع الرأس على الأرض في السوق حتى يكون عبرة للآخرين، وذلك يتّم في أقل من أربعين ساعة من وقت وقوع الجريمة.

بالإضافة إلى ذلك، فان العدالة في الجزيرة العربية دقيقة بصورة واضحة. يأخذ الشيخ في الجزيرة العربية، بالحسبان سجلّ المتهم، ويصغي باهتمام إلى الشهود.. يسألهم، ومن ثمَّ يصدر الحكم بفطرة هي في بعض الأحيان ممتازة في الغالب. ومن المؤكد أنه لم يحدث كثيراً أن عوقب رجل بريء في الجزيرة العربية. يبدو عدد الشهود الذين يستجوبون قليل، وليست هناك فرصة لتحليل الشهادة بعناية ضدّ أو مع الرجل الذي يحاكم، كما لدينا نحن في محاكمنا، ومع ذلك فحينما يصدر الشيخ حكمه، فان دقّته مدعاة للعجب.

وإذا أُضيفت إلى سرعة ودقة الكشف عن الجناة، العقوبة القاسية التي لا يمكن تصوّرها، يصبح التأثير الرادع في العقلية العربية كبيراً جداً بلا شك. ومن المأمون القول: إن ذكرى ذلك الجسم المقطوع المرميّ في تراب السوق في الهفوف سينقذ قوافل كثيرة من السلب والنهب، تماماً مثل ذكرى الظهور النازفة لأولئك الرجال الغائبين عن الوعي، التي جنّبت عدداً لا يُحصى من أبناء المدينة (الهفوف) الإهانة وسوء المعاملة، من الزائرين البدو في الأحساء.

في كل حكم، يكون في بال الشيخ، مصلحة المجتمع العامة وليس مجرد العدالة الفردية، فمن تقطع عنقه بعيداً عن الأنظار، يكون قد تلقّى عقوبته بنفس الشدّة، أمّا ترك الجسد مقطوع الرأس في السوق المتربة طيلة اليوم، ليراه الناس، فذلك درس لهم ليتعظوا. رأيت مثالاً لهذه المسألة في الأحساء. فقد فَقَد بقّال حاجة ذات قيمة في دكانه، ففكر بالأفراد القليلين الذين زاروا الدكان للتّو، وقّرر أن السرقة، قام بها زائره الأخير.

تعقّب البقال ذلك الرجل، في الحال، فوجده وتلك الحاجة

المسروقة في يده، وحينما وُجّهت التهمة إلى السارق، ادّعى أنه اشتراها من شـخص عربي ثالث، وأشار إلى الشرطي الذي ألقي القبض عليه. أُخـذ الثلاثة عـلى عجل إلى الحاكم، غير أن الثالث قـد تمّ الإفراج عنه من قبل إبن جلوي مع الاعتذار. ان هذا لا يعني ان فطرة الحاكم خمنت براءتـه على الوجه الصحيح.. إلا أنها رغبة الحاكم ليظهر للصوص أن مثل هذه الحيلة لا تنفعهم، فلا حاجة لمحاكمته.

أساليب المحاكمات، معقدة في الواحات أكثر منها في الصحراء. فشيخ القبيلة الصحراوية يسوي عملياً هو نفسه كل نزاع، ويحاكم كلَّ جانٍ، وهذه حالة لا وجود لها في مدن الواحات، حيث يُقدّم النصيحة إلى الحاكـم، مجلس هو بمثابة مجلس وزراء، وقد ينتفع انتفاعاً كبيراً من هذه المشورة. ففي الأحساء، حوّل إبن جلوي إلى مرؤوسيه كلَّ الادارة المحلية تقريباً، في حين حصر مهماته بالقضايا الأكبر المتعلقة بالسياسـة والعلاقـات العامة مع القبائل البدوية القاطنة في الجوار. وثمة منصب كبير كان يشـغله قـاضٍ، ينظر في الدعاوى التي يختـص بها الشرع. إن كلَّ هـؤلاء الموظفـين هـم تحت إمرة الحاكـم في الأصل، ولكـن بما أنه ليـس خبيراً شرعياً، لـذا يحيل عدداً منهـا إليهم. وإذا مـا كان القاضي رجلاً صالحاً، وشـعر الحاكم أن المصالـح مأمونة على يديه، فإنه عملياً يُحيـل كلَّ دعوى إليه. ثمة دعاوى كبيرة من هـذا النوع، منها مثلاً كل القضايـا التي تتعلق بالزواج والطلاق والنزاعات بشـأن الإرث، وقد تُحـال في بعض الأحيـان إلى القاضي دعاوى الإجـرام، إلاّ أن غالبيتها يبتّ بها الحاكم نفسه.

بقـي أن نذكر الوسـيط غير الرسـمي ويقوم بمهمـة كبيرة لدى القبائـل وفي مجتمعات الواحات. فحينـما يتنازع طرفان فانهما في أغلب

الأحايين يذهبان إلى حَكَم ويرفعان قضيتهما إليه، ويتقيدان بحكمه. بالطبع إن ما يجلب هذه الدعاوى إلى الحَكَم أو الوسيط هو سمعته الطيبة، وعدم تحيّزه، وتحليله الثاقب. ليس هناك من أجور تقدّم لخدمة كهذه، غير أن مقامه في المجتمع يتعزز كثيراً، لأنه سئل أن يفصل في القضايا، بحيث يُنظر إليه بمرور الزمن على أنه واحد من المواطنين المتصدرين في المجتمع (الأعيان).

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك، محمد أفندي في الأحساء.. فقد حضرتُ مرّة، وقلّما كنت أحضر، مجلس استقبال مسائي له، حينما لم تُجلب أمامه واحدة أو اثنتان من دعاوى كتلك، لإصدار حكم. كانت استقامته مضرب الأمثال في جميع أنحاء شرقي الجزيرة العربية. إن تسعين بالمائة تقريباً من الخلافات الصغيرة تحسم بأسلوب الوسيط.

تتم المحافظة على النظام العام بواسطة قوة شرطة صغيرة للغاية. ففي زيارتي الأخيرة للأحساء وعدد سكانها (١٠٠ ألف نسمة)، فان عدد أفراد القوة العسكرية في مجتمع الواحة هذا، يبلغ مائة رجل، تحت إمرة إبن جلوي المباشرة. وهم يُراقبون بدقّة، ولا يُسمح لهم بأيّ عمل ظالم.. وفي أثناء وجودنا هناك حدثت مشاجرة بين شرطي وتاجر محلي في السوق، وأثناء المشاجرة تمزّقت قبعة الشرطي، فجاء ليقدم شكوى إلى إبن جلوي، غير أنه استُقبِل بقليل من العطف. استمع الحاكم إلى قصته، وكان يعرف أنه إذا ظهر أيَّ اختلاف، فان الذنب سيقع بلا شك على عاتق الشرطي، لأن ما من مواطن يهين أو يسيء المعاملة مع أفراد قوة الشرطة بدون سبب.

ـ (هذه روبية لتشتري بها قبعة جديد) هكذا قال له الحاكم، وواصل القول: (واسمع.. إذا تشاجرتَ مع فلاح مّرة ثانية، فسيكون

عقابك الضرب إلى أن تغيب عن الوعي).

وبعد النظام العام من حيث الأهمية تأتي حماية الفقراء من الأغنياء والأقوياء، وهي مسألة ينظر إليها الشيخ وكأنها شغله الرئيسي. إن جشع الأغنياء يعرفه الداني والقاصي في جميع أنحاء الشرق. البراهما الأغنياء في الهند يحتكرون الحاجات الضرورية، فيصبحون أكثر غنى، بينما الفقراء يتضورون جوعاً، وهذا أمر شائع. إن مصالح الفقراء ليست مأمونة في ايدي الأغنياء، حتى في بلدنا، كما أن قدرة الطبقات الدنيا في الشرق للدفاع عن نفسها أقل مما عندنا. إن العربي رجل عمل فقير جداً في أفضل حالاته وتعوزه القدرة على العمل لحسابه الخاص، لذا يقع فريسة سهلة لمضاربات رأس المال. ولولا حماية حاكم الواحة له، لكان نصيبه صعباً. وبالإضافة إلى عدم قدرته، على العمل لحسابه الخاص، يعوزه التدبير الاقتصادي ويؤدي هذا إلى صرف دخله مهما كان كبيراً، وبابتهاج، بدون اعتبار للغد على الإطلاق، عندما يأتي ذلك الغد وهو محتاج تماماً. النتائج الطبيعية لحالات كهذه، يمكن ملاحظتها في الوضع المحزن للفلاحين الذين يشتغلون في بساتين نخيل بلاد الرافدين، ولصيادي اللؤلؤ في البحرين. وثمة مقدار طفيف في ميزان التعاسة وهو جماعة العبيد في دبي.

إن أكبر تطور يمكن ملاحظته بشأن جشع الأغنياء، هو في دخول الأفكار الغربية حول قدسية الحياة والتملك والتي سمحت لهم بزيادة رأس المال بدون حساب أو مراعاة لأحد. هناك عدة أساليب قد يحاول الشيخ بها أن يكبح جماح جشع الأغنياء. فمثلاً، المواد الغذائية تُسعَّر، وأيّ تلاعب بالأسعار المسجلّة، من قبل البائع يواجه عقوبة صارمة. إنّ أجراء كهذا مفيد، ضمن حدود معقولة. كنتُ في أحد الأيام جالساً

في قاعـة محكمـة مبارك في الكويـت، حينما دخل أكبر تاجـر في المدينة، وقـد تمّ تعنيفه علناً، وأمره بتخفيض سـعر نقل التمور من البصرة إلى الكويـت. مثل هـذا العمل ممكن ضمن حـدود، ولكن كإجـراء دائم لـن يحالفـه النجاح، لأن ذلك يعني ببسـاطة أن تلك التجـارة بالذات سـتضعف. ففي البحرين مثلاً، ثُبِّت سـعر السمك اعتباطياً، بأقل من سـعره الحقيقي.. لم تكن النتيجة سـمكاً رخيصاً، وإنما اختفى السمك من الأسواق نهائياً. من السهولة بمكان أن تمنع الباعة من فرض أسعار أعلى من السعر الحقيقي للأسماك، ولكن لا يستطيع حتى الشيخ العربي أن يجبرهم على صيدها إذا لم يكن هناك ما يغريهم على القيام بذلك.

هناك وسـيلة ذات تأثير أكبر للإبقاء على كفتي الميزان متسـاوية وهـي إلغاء العقود الجائـرة، وعلى الخصوص حينما تنشـأ ظروف غير متوقعـة، كـما حدث مثلاً في القطيف حينما كان محصول التمور فاشـلاً جزئيـاً أو كليـاً. فالعقد الأصلي، الـذي يخول صاحب بسـتان النخيل بتسلّم عدد معين من قلال التمر، قد يدّمر الفلاح، وهناك لا بد لحاكـم القطيـف من إصـدار أوامـره بتعديل بنـود العقد لصالح المـزارع. ان صاحب البسـتان سـيعدّل، بكل تأكيد تلك البنود بـدون رفع القضية إلى الحاكـم المحـلي، أمير البلدة، فهو ـ أي صاحب البسـتان ـ يخاف أن يعيد الحاكم النظر بتلك البنود بصورة متطرفة، الأمر الذي يجعله يقبل بإعادة النظر فيها باعتدال. أيضاً في المدن السـاحلية ثمة سلسلة متواصلة من النزاعات بين صيـادي اللؤلؤ، وربابنتها (النواخذة). كنت في يوم ما أجلس في قاعة المحكمة بالأحساء ورأيتُ نوخذا صيد اللؤلؤ، وقد طـرده إبن جلوي بخشـونة إلى حدّ ما، وكان القـرار ضدّه. ولكن على ضوء ملاحظة ألقاها الحاكم تبيّن ان النوخذا كان على حق تقنياً، إلاّ أن

الحاكـم فكّر أن الميزان كان بحاجـة إلى إضافة وزن قليل في ذلك اليوم لصالـح الفقـير. وحتى معاملة العبيد في دبي قد خفّفت بسـبب تدخل الشيخ لصالحهم على الدوام، حينما يطلبون حمايته.

يـروي البـدو في هذا الصـدد قصة عن إبن سـعود، وقد وقعت أثنـاء زيارتـه الأولى إلى القطيـف بعـد أن طـرد الأتـراك مـن المنطقة. ووفقـاً للعادات المرعية في (الشرق)، كانت تلك الزيارة فرصة لتقديم الشـكاوى وتسـوية الخلافات، وقد دخل إلى حجرة الاستقبال العامة الكبـيرة نوخذا مركب لصيد اللؤلؤ وهو يجرّ معه غواصاً مديناً له، مع الشـكوى القديمة المتكررة، أن هذا الغـواص لا يريد أن يدفع الديون التـي عليـه. كان إبن سـعود يعرف، كأيّ شـخص في ذلـك الجزء من العالم أن نواخذة الغوص على اللؤلؤ، عديمو الضمير تماماً بأساليبهم، وشـنيعون في مطالبهـم. إن كل النظام القائم بشـأن صيـد اللؤلؤ نظام يكرهـه إبن سـعود، لذا طلـب دفتر الحسـابات، فجُلِب إليـه، ووجد الصفحـة المتعلّقـة بقيـد الغـواص الخـاص. (هـل هـذا هو الحسـاب الكامل؟ ما المجموع؟). أُعلن المجموع. وعندئذ أخذ إبن سعود دفتر الحسـابات وكتـب في صفحة المدخولات: (بخصـوص دين خالد بن عبـد اله، الغـواص إلى عبد الكريم النوخذا، فإنه مُعفى عن دفع الدين الأول والثاني وكل المقدار المدين به) وختمها بختمه. كان ذلك درسـاً نافعاً، كان له بلا شك تأثير ناجع في المنطقة على أقل تقدير.

على أية حال، إن فاعلية النظام العربي في حماية الفقراء من جشع الأغنياء، لا تعتمد بصورة أساسـية على مسكنّات كهذه. إنها بالأحرى موقوفة على طبيعة تلك الحكومة وفي ميزة المجتمع نفسـه. حينما تكون الحياة رخيصة والاغتيال شيئاً طفيفاً، فإن الرأي العام هو الذي يتفوق.

يريد المجتمع أن يكون الفقراء محميين من جشع الأغنياء. هذا الشعور لا بدَّ منه، لأن معظم الناس فقراء، والحاكم يعرف أن بقاءه في منصبه، ومن المحتمل تماماً حتى حياته، يتوقفان على نجاحه في هذه المسألة. علاوة على ذلك، هناك عامل آخر له تأثير كبير، فالحاكم بحاجة إلى المال بشكل مزمن، لذا فهو سيرحّب بقتل رجل غني ما لمصادرة ممتلكاته. السبب الوحيد الذي يمنعه من فعل ذلك، هو أن المجتمع لا يطيق ذلك. إن اغتيالاً كهذا، وبدون سبب مناسب، قد يكلّف الشيخ كرسي الحكم وحياته. ولكنَّ الوضع سيكون مختلفاً، لو أن ذلك الرجل الغني نفسه، كان مجحفاً وقاسياً في تعاملاته التجارية، فإذا عامل فلاحيه بصرامة، لدرجة لا يملكون معها إلاّ طعاماً شحيحاً، وملابس بائسة، وبيوتاً بالكاد تصلح للحيوانات، وإذا ما جاءه الشحاذون يستجدون طعاماً، وطردهم مع لعنات، وإذا ما بيعت ممتلكات المدين لتسديد ديونه، بلا رحمة، حينما يستحق الدفع، عندئذ يتطلع المجتمع إلى موت ذلك الرجل الغني، وهكذا يكون الطريق ممهداً أمام الشيخ ليقوم بالباقي بسرعة.

يعرف الرجل الغنيّ كلّ هذا، ولذا يحترز أشد الاحتراز، أن لا تنزل شعبيته إلى مستوى واطئ كهذا. فالشحاذون الذين يأتون إلى قصره، يُطعمون بسخاء، والمدينون غير القادرين على تسديد ديونهم في الوقت اللازم يعاملون بتساهل ورفق، وتُمدَّد مواعيد تسديد الديون إلى زمن غير محدود في أغلب الأحايين. أما الفلاح في بساتين النخيل، فلا يجد صعوبة في ضمان تخفيض العقد، إذا كانت السنة سيّئة. أمّا التاجر العربي في داخل الجزيرة العربية فمتساهل وأريحي لدرجة تثير الإعجاب. ليس من العدل له شخصياً، أن يُعزى موقفه هذا، إلى ضمير

يتملـق فيه المجتمع، فهو كان دائماً على هذه الوتيرة من الكرم، كما كان والـده قبله. الرجل الذي لا يقوم بذلك، شـاذّ عن القاعدة، لأن روح العطف والإحسـان أصبحت عرفاً في تلـك الطبقة، ولكن ما أن تُترك تلـك الطبقـة عرضـة إلى نِعَم الحضـارة الحديثة، حيث الحيـاة والملكية مأمونتان، يذبل ذلك العرف ويموت، مثل وردة في الصحراء.

عـلى هـذا، فوجـود الشـيخ الحاكـم أو الأمـير عنـصر مهـم للمحافظـة على الوضع الاقتصادي للمجتمع ولا سيما في الواحات، حيـث الأوضاع البدائيـة للحياة الصحراوية تعقّـدت بوجود طبقات اجتماعية. فالشـيخ الحاكم وحاشـيته يكوّنـون الطبقة الأولى من حيث المكانة في المجتمع العربي، وبأيديهم السلطة على الضرائب العامة، وما من شـكوى ضدّهم لو أنهـم صرفوا مبالغ طائلة عـلى زوجاتهم وعلى المقّربـين منهم، بهذا القدر هـذا الأمر متوقع. يمكن أن يتحمل العرب بصورة تبعث على الدهشـة، هـذا المقدار من التجاوز، شريطة أن تقوم الحكومة بواجباتها على خير وجه.

ظهـرت مـع الزراعـة في مجتمـع الواحـة طبقتـان ميسـورتان إضافيتـان وهما: ملاّك الأراضي، وأصحـاب رؤوس الأموال. لم يكن المرسوم الذي جعل تملّك الأراضي الواحات تملكاً خاصاً أمراً عرضياً، أو اعتباطيـاً أو غـير عادل. إن الأراضي بحاجـة إلى قابلية تجارية كبيرة حتى تدرّ الزراعة ربحاً، تحت الظروف المعاكسة الناجمة عن ندرة المياه. فبـدون الاسـتفادة من المـوارد الطبيعيـة، لا مفرّ من أن ينـزل المجتمع من مسـتوى الرفاهية إلى مسـتوى العوز والفاقة، وهو المسـتوى الذي يشيع بين القبائل الصحراوية، والملكية الخاصة هي الأسلوب الوحيد الممكن لضمان زراعة تلك البساتين.

وتعتمد رفاهية وتقدم المجتمع أيضاً على ظهور مقدار معين من الرأسمال الحرّ، الذي بدونه يتعذر نقل البضائع، وتتعذر إمكانية تبادل العملات في الغالب، ما عدا ربّما المناطق المجاورة مباشرة. إلاّ أن الثمن الذي يدفعه المجتمع لخدمات الملكية الخاصة، وللرأسمال، يعتمد اعتماداً كلياً على مزاج المجتمع. المجتمع ليس تحت سيطرة الطبقات الميسورة تلك: في الواقع إن إرادة الطبقة الميسورة، تتصدى لها إرادة المجتمع، وما المقدار القليل من الضريبة التي تؤخذ، إلاّ نتيجة موازنة تم التوصل إليها بين هاتين القوتين المتنافستين. يتوقع العربي في حالة كهذه، من الشيخ أن يحافظ على التوازن، وفي حقيقة الأمر ينجح الشيخ عادة نجاحاً كبيراً.

ومن وجهة نظر، نظرية صِرف، يمكن أن نتوقع أن تستحوذ أية طبقة من تلك الطبقات الثلاث ذات الامتيازات، على جميع الفوائد من الحياة الزراعية المستقرة، كما نتوقع أن تكون حياة المواطن العادي باقية بمستوى حياة البدو في الصحراء. وبناء على نظرية هنري جورج، فان الايجارات هي التي تستهلك كل الفوائد من أسلوب الحياة الذي تغيّر، وبناء على نظرية كارل ماركس فان ابتزازات الرأسمال، هي التي تأخذ الفوائد جميعها، بينما الرجل الذي تركزّ اهتمامه على احتمالات احتكارات الحكومة، قد يتوقع أن طبقة معيّنة هي التي تحصل على المزايا جميعاً. في الواقع إن الطبقات الثلاث صاحبة الامتيازات (طبقة الحكام وحاشيتهم، وطبقة ملاك الأراضي، وطبقة مالكي الرساميل) لا تحصل بمجموعها على نصف الفوائد. عموماً، إن متوسط دخل الفرد في الواحات أعلى بكثير من نظيره في الصحراء.. ويتفوق أبناء الطبقات الثلاث ذات الامتيازات الخاصة على أتباعهم بقية أفراد

المجتمع مع مقدار إضافي معيّن من الراحة الرفاهية.

ولكن حتى تتحقق الموازنة، فإن ذلك يعتمد على مزاج المجتمع. إن مجتمع صيد اللؤلؤ الساحلي، الخائف الجبان يعاني من كل شيء ولكنه لا يجأر بالشكوى إلاّ قليلاً. ومن ناحية أخرى، فان القبائل البدوية في داخل البلاد، لا يسمحون إلاّ بابتزازهم إلا بقدر أقل، كثمن يدفعونه للحكومة وهم أفضل بكثير من صيادي اللؤلؤ، ويدفعون من أجل التطوير المناسب لمواردهم الزراعية، أقلّ مما يدفعه سكان الواحات قرب الساحل.

وللأمير الحاكم في الواحة مهمة كبيرة أخرى، ألا وهي المحافظة على العلاقات الخارجية. فحدود المراعي غير محددة، في أغلب الأحيان، في بلد يخلو من مسّاحين، وليس لديه حكم مركزي مستقر. كل شخص يريد كل ما يقدر أن يحصل عليه، وحالما تظنَّ قبيلة، أنها قوية بما يكفي، للقيام بذلك، تحاول أن تتعدّى على ممتلكات جيرانها. يشجع شيخ القبيلة وضمن قبيلته على روح التعاون والإخلاص المطلقين، والكلّ متساوون، ومصالح القرية فوق الجميع.. لكنَّ نشاط القبيلة خارج حدودها يأخذ طابع اللصوصية، ونظراً لأنها محاطة باللصوص، لذا فالمحافظة على العلاقات مع قبائل أخرى تصبح مهمة. وعلى هذا فان غزو القبائل الأخرى يجب أن يخطط لها، كما يجب إنشاء خط دفاعي مناسب بوجه الأعداء.

من الغريب أن هذه الغزوات لا تُحدث إلاّ استياءً شخصياً قليلاً. استفسرت مرّة عن هذه القضية من بدوي جاء إلى الكويت، لإجراء عملية جراحية بسبب إصابته باطلاق ناري من قبل أحد الغزاة. ذكرتُ له أن الرجل الذي أطلق عليه النار لا بدَّ أن يكون

شرّيـراً بكل تأكيد. لم يفهم المريض، النكتة في كلامي، وسـارع للدفاع عن عدوّه ضد هذا الإفتراء. وقال: (آه لا، لا أظن أنه كان شريراً. لقد حاولت ...). وهنا ابتسم ابتسامة عريضة رائعة، وقال: (لقد حاولت أن أطلـق عليـه النار، ولكن لم يكن الحظّ إلى جانبـي). هذه الغارة هي اللعبة القومية عند العرب، ولعبة (البيسبول) في أمريكا، ليست أفضل رياضة منها. إن العرب بدون هذه الرياضة المثيرة، يشـعرون بالضياع، وعلى هذا فهناك سخطٌ على حكـم إبن سعود بسبب قمعه الشديد لهذا النشاط الدموي.

مـا بقي أن يُبحـث، هو تحصيـل الضرائب في الجزيـرة العربية، وهو كما في أيِّ مكان آخر في العالم، عمل حكومي مهم. فشـيخ القبيلة البـدوي في الصحراء، ليس بـين يديه مدخول كبير. إنـه يمتلك جمالاً وماعـز ومـن المحتمل قليلاً مـن الخيول، عـلى الأقل. غير أنه يتسـلّم ضريبة معتدلة مـن أفراد القبيلة ويفترض أن تكون هذه الضريبة دينية أي زكاة، وكانت بالاصل تجبى لمساعدة الفقراء، والشيخ بالطبع يساعد الفقراء، لذا فهو يجمع ويدير الضريبة، ولكن ما من أحد أجرى تحقيقاً على المقدار الذي صرفه على الفقراء فعلاً. إن الزكاة تشكّل جزءاً كبيراً من مدخول الشيخ الخارجي، أما شيوخ القبائل الأقل أهمية فيتسلّمون القليل بهذه الطريقة، وهم يعتمدون في الغالب، في كل مدخولهم، على قطعانهم، وبعضهم فقراء لدرجة البؤس.

أما الحاكم المسيطر على مدن الواحات ففي وضع أفضل بكثير، حيـث هنـاك ضريبة على كل بسـاتين النخيل، وهي تبلغ ما بين خمسـة إلى عشرة بالمائة من محصولها، وتفرض هذه الضريبة في بعض الأحيان كسعر موحّد على كل نخلة، من الصعوبة التوصل إلى النسبة المئوية في

حالات كهذه، ويبدو أنها من السهل تحملّها، كما هي الحال في الوقت الحاضر في الأحساء. إنها لا تبلغ أعلى من روبيتين بالنسبة لكل نخلة، وبقدر ما يتيسر لإنسان خارجي أن يعلمه، يمكن القول إن حاكماً واحداً تجبى له كل الضرائب. لا بدَّ أن الرؤساء السابقين كانوا راضين بمدخولهم من ملكياتهم الخاصة.

إنَّ جبابة الضرائب في الواحات، أمر سهل. يبدو أن ممثلي إبن سعود أكفاء للغاية في مسك الدفاتر. لقد راقبت دزينة يدخلون إلى مكتب أمين الصندوق في الهفوف، عاصمة الأحساء، ولم أر لحدَّ الآن قط رجلاً تأخّر خمس دقائق للتحقّق من المبلغ المطلوب الذي عليه أن يدفعه للدولة. أمّا تحصيل الضرائب من البدو فمسألة أكثر صعوبة، وللموظف الذي يجمع تلك الضرائب تجارب تبعث على الدهشة، على أية حال إن الجباة في الوقت الحاضر، لا يواجهون إلا صعوبة أقلّ من الماضي، لأن اسم إبن سعود وسلطته، كبرا إلى حدّ بالغ تماماً.

وبالإضافة إلى الضرائب المباشرة، تعلّم الشيوخ القريبون من الساحل، منذ مدّة طويلة، بأن رسوم الصادرات والواردات تمنحهم وسيلة سهلة لزيادة مدخولاتهم. تباع جمارك الموانئ الساحلية إلى أعلى مزايد، وهذا نظام ذميم، ومن المحتمل جّداً أنه أُخذ من الأتراك، بيد أنه الآن على أية حال، عامّ شامل. وهكذا فالشيخ معفى من مسؤولية إدارة مكتب الجمارك والمكوس، وحينما يراقبها بقبضة من حديد، كما يفعل إبن سعود في الوقت الحاضر، يسير النظام سيراً حسناً جداً. ففى العهد التركي، كانت الجمارك والمكوس في الأحساء والقطيف والساحل المجاور، تباع (تُضمن) ككل بمبلغ سبعين ألف روبية في السنة، والآن وبعد عشر سنوات من قيام حكومة كفوءة تحت إدارة

إبن سعود، فإنها بيعتْ بسبعمائة ألف روبية.

يبدو أن الفكرة الأصلية في الجزيرة العربية كانت فيما يتعلق بالشيخ بأنه يجب ألاّ يجمع الضرائب، وإنّما يعيش على الربح الذي يأتيه من أملاكه الخاصة، وهي فكرة ابتعد عنها الآن. كان شيخ الكويت الراحل، مبارك، ثرياً جداً من بساتين النخيل حول الفاو، وكانت مصروفاته الباذخة ممكنة بسبب ما يتسلّمه من ربح من بساتين النخيل تلك، لأنه لا يتسلّم إلا القليل من مواطنيه، ما عدا دخلاً صغيراً على الصادرات والواردات. أما سعيد شيخ دبي، فلا يحصل على أية مكوس وليس لديه أيّ مدخول ما عدا ذاك الذي يحصل عليه من أملاكه الخاصة. أمّا إبن سعود فيحصل على مدخول من المكوس البالغة سبعمائة ألف روبية، أو أكثر من مائتي ألف دولار. من المحتمل أنه يجمع مائتي ألف روبية من مصادر ضريبية أخرى، وأخبرني مرافقوه إنه يحصل على مبلغ مماثل من بساتينه وأملاكه الخاصة الأخرى. يقدّر العرب مدخوله بما لا يقلّ عن مليون روبية سنوياً، بالإضافة إلى خمسة وسبعين ألف روبية في الشهر يتسلمها من كمعونة خارجية. وعلى الرغم من أن هذا المبلغ شيء زهيد بالمعايير الغربية، إلاّ أنه يصنع شخصية بارزة في الجزيرة العربية، فبواسطته يحافظ الزعيم على سمعة كرمه. إن الحكومة تنهار إذا توقف المدخول الرسمي، كما هو شأن كل حكومة في أيّ مكان في العالم.

هناك أشياء، لا يفعلها حاكم عربي، فهو لا يهتم بخطط الصحة العامة، فهو لا يخطر على باله، أن عملاً كهذا يقع في نطاق مهامه كحاكم. بالإضافة إلى ذلك فهو لا يتدخل في مراقبة الشعائر والممارسات الدينيّة. إنه يتدخل بالطبع، إذا علم أن شخصاً ما يبثّ

مبادئ هرطقة. وإذا كانت الأمور تجري بمجراها الطبيعي، فليس للحاكم من وظيفة دينية ما عدا ذهابه للصلاة في المسجد، كأي مواطن آخر. التوجيه الديني، والشعائر، بأيدي المرشدين الدينيين. أيضاً، لا يبذل الشيخ أي جهد، لتوجيه الحياة الاقتصادية للمجتمع، ما عدا القيام بتعديلات العقود، وفي بعض الأحيان تثبيت أسعار المواد التي ذُكرت أعلاه.

إنه سعيد لأن يرى أمارات الرفاهية في المجتمع، ولكنه لا يتصوّر أن لديه أية مهمة، في تنشيط، أو توجيه التطور الاقتصادي. الفكرة في أنه يجب أن يأخذ المبادرة في الإصلاحات العامة كبناء رصيف مرفأ، ستبدو له فكرة غريبة ومخبولة. في الأيام الأخيرة من الاحتلال التركي، للقطيف، كان يحكم هذه المدينة، شخص عربي محلي، وكان في نفس الوقت موظفاً رسمياً تركياً. هذا الرجل، واسمه الحاج منصور باشا، فكّر بنقل السوق إلى موقع جديد بالقرب من البحر، وحفر قناة مائيّة إلى رأس السوق، حتى تتمكن المراكب الشراعية التي يعتمد عليها المجتمع في التجارة من الوصول الى الداخل في كل أوقات المد والجزر، وتفرغ حمولتها في السوق نفسه. كانت فكرة رائعة، وكانت ستسهم إلى حدّ كبيرٍ في ازدهار المدينة. وحينما كانت السوق في منتصف إنشائها وحينما كانت القناة في منتصف الحفر، مات منصور باشا، وبعد فترة قصيرة تمّت السيطرة على القطيف وطُرد الأتراك. ومنذ ذلك التاريخ والقطيف تتمتع بحكم حسن، فقد تمّت المحافظة على النظام العام فيها، وانتهى سوء حكم الأتراك. سعر العقارات ضعف ما كان عليه من قبل.. ولكنني لم أسمع بأي اقتراح مهما كان صغيراً بإكمال إصلاحات الميناء التي بدأها منصور باشا.

يعتبر عبد الرحمن بن سويلم أمير القطيف من أفضل الحكام الإداريين في جميع أنحاء الجزيرة العربية، ولكنني واثق من أن أي شخص يقترح عليه فكرة إكمال المشروع الرائع، مشروع نقل السوق وإكمال مدّ القناة، فإنه ـ أي ابن سويلم ـ سيصاب بالدهشة والإستغراب. فالحاكم الإداري لا يفترض أن يكون من مهامه هكذا نوع من الأعمال. سيرحب بأي جهد خاص لإكمال المشروع وسيشجعه، أما أن يقوم هو به، فإن لديه مهام أخرى أكثر أهمية. إنه في القطيف ليحكم، وهذا يعني بالتحديد المحافظة على الأمن العام، وكذلك المحافظة على توازن المساواة بين المواطنين في المجتمع، وأيضاً تنظيم علاقة القطيف وروابطها بالقبائل الأخرى. أكثر من ذلك، فإن ابن سويلم لا يعترف بأي مسؤولية مهما كانت، وليس هناك من حاكم مثله في العالم لديه أقلّ تعاطف مع الفكرة الإشتراكية التي تقول بأن الحكومة يجب أن تكون في المجتمع أداة للحياة التعاونية في المجال الإقتصادي.

(٤)

غوّاصو اللؤلؤ في الساحل الشرقي

يقع على طول الساحل الشرقي للجزيرة العربية أكبر مغاصات لؤلؤ في العالم قاطبة. ان صيد اللؤلؤ.. مهنة تلك المنطقة من الجزيرة العربية لقرون عديدة، حيث يشتغل في هذا العمل الصعب والخطر، حوالي مائة ألف عربي، خلال أشهر الصيف. لا بدّ أن نصف مليون، يعتمدون في رزقهم، على هؤلاء الصيادين، وهذا الرقم لا يشكل نسبة كبيرة من سكان الجزيرة العربية، إلاّ أن الغّواصين يستحقون التقدير والدراسة.. ذلك لأن العالم الخارجي، اتصل بهم اتصالاً أوثق من أي اتصال آخر لهم مع المجموعات العربية الأخرى في عموم الجزيرة العربية. وكما هو متوقع، فان المدن الساحلية، تضّم الحرفيين، والعمال، ومزارعي النخيل، والتجار. وهؤلاء يختلفون اختلافاً كبيراً، عن الفئات المشابهة لها في أي مكان آخر.

ما من مكان يفوق في قحولته، قحولة المناطق الساحلية التي يعيش فيها هؤلاء الرجال.. فمن الكويت في الشمال، إلى رأس الخيمة في الجنوب، أي حوالي ثلاثمائة ميل، لا يمكن إلاّ نادراً مشاهدة شيء

أخضر، اللهم إلاّ أميالاً قليلة من بساتين النخيل في القطيف، وعدداً أقلّ في دبي. أمّا مياه الشرب المتيسرة فمالحة، وهي في الغالب غير صالحة للشرب في أماكن كثيرة. فسكّان أم القوين مثلاً، وهي إحدى تلك المدن (يشربون الطين) إذا ما اقتبسنا ما يقوله العرب. إن الساحل العربي الغربي غير خصيب، بكل ما في الكلمة من معنى، وعلى هذا يجب أن يُستورد الطعام، وفي بعض الأماكن، يستورد حتى الوقود، والماء الصالح للشرب.

كل المدن على طول هذا الساحل، شماليّ رأس الخيمة، تشكّل تجمعات لصيد اللؤلؤ، وبعضها كبير جداً. فالكويت وهي أكبرها تضمّ حوالي خمسين ألف شخص، وفيها تسهيلات لا بأس بها لإرساء السفن. أما حكومة المدينة، فهي كما هو مشهور عنها، كفوءة وقوية لسنوات كثيرة. وقد يعيش الغواص أيضاً في هذه المدينة أو تلك، وعلى هذا نمت الكويت، وأصبحت مدينة كبيرة، حيث يجلب إليها الماء الصالح للشرب، بمراكب شراعية بُنِيتْ خصيصاً لهذا الغرض، من شط العرب في بلاد الرافدين، على بعد ستين ميلاً، في حين يعيش الغواصون على الأرزّ الذي يجلب لهم من الهند، وعلى الحنطة التي تجلب لهم من إيران، وعلى الضأن الذي يجلب إليهم من إيران والجزيرة العربية. الإنتاج المحلي الوحيد في الكويت، هو السمك.. وبيئة كل تلك المدن شبيهة تماماً بمدينة الكويت. المشهد الطبيعي امتداد رملي مملّ متواصل من جهة، وبحر من جهة ثانية. الحرارة في الصيف على أشدها، والهواء في الغالب رطب، وعلى هذا فالطقس خلال ثلاثة أو أربعة أشهر لا يُحتمل في أغلب الأحايين.

تبدأ مجموعة الغواصين عملها في فصل الربيع، وهم يعجّون

بالنشاط البالغ. فالمراكب تنظف وتُصلح.. صوارٍ جديدة تُثبّتْ، وحبال جديدة تُجهّز. وحينما تقترب مواسم الغوص، تؤخذ التجهيزات من الماء والطعام إلى المراكب، ويجتمع الغواصون من كل حدب وصوب. معظم السكان على الخليج الفارسي هم من الغواصين، وفضلاً عن ذلك، يأتي عدد أكبر من مناطق بعيدة للغوص في الموسم. فهناك غوّاصون من كل منطقة في الجزيرة العربية، ومن جميع أنحاء بلاد الرافدين: ويأتي نفر قليل حتى من أقاليم مختلفة بإيران، بحيث يمتلئ المكان بالاحتفالات والرفقة الطيبة، والأمل بموسم ناجح.

وأخيراً يأتي يوم الشروع بالعمل. تُثبّتْ الأشرعة الكبيرة على المراكب، وكذلك المجاديف الطويلة الثقيلة بكامل مجموعتها، حتى يكونوا غير معتمدين على الريح، إذا ما اقتضت الضرورة. إن منظر خروج أحد تلك المراكب الكبيرة إلى البحر، لا يُنسى لأمد طويل. كنتُ مرة قد شاهدت أحد تلك المراكب الكبيرة وهو يغادر إلى أماكن اللؤلؤ. في فصل الشتاء، تسحب هذه المراكب على الرمل عبر بحيرة صغيرة داخل المدينة، وفي الربيع يتحرك المركب الكبير بصورة مهيبة إلى البحر. للمركب من عشرين إلى ثلاثين مجدافاً ضخماً في كل جانب، وكل مجداف يديره غواصان. المجدّفون يتأرجحون بفخامة وهو يغنّون: (آ بالله مال، آ بالله مال) بإيقاع كإيقاع فوج عسكري ذاهب إلى الحرب، أو كفريق كرة قدم في طريقه إلى مباراة، إنّه مشهد لم أرَ مثله من قبل أبداً. على سكّان المركب يرفرف علم حريري فاخر. ويذهب المركب وكل صبي صغير جداً في دبي يتمنّى أن لو كان معهم على ظهر المركب. حتى أنا نفسي أُثرتُ وأصابتني هزّة. أما الصبي البلوشي الذي كان معي بصفة مساعد طبي، فوجد من الصعوبة أن يثبّت قدميه على الأرض.

قال لي: (أوه يا صاحب، إنها تجعلني أرغب في الذهاب معهم).

على أية حال، ما أن يصل الغواصون إلى مغاصات اللؤلؤ حتى يصبح العمل شاقّاً وخطراً. تُثبّتْ المجاديف الكبيرة في أماكنها، حتى تمتّد أفقيا فوق الماء، وفي كل مجداف يُشَدّ حبل يحمل ثقلاً من رصاص أو حجراً، في نهايته. يقف الغوّاص على هذا الثقل، وهو ينزل في الماء، حتى يغوص بسرعة. لكل غوّاص مساعد ولديه واجب رفع الوزن حالما يصل الغواص إلى القعر، ليكون جاهزاً للغوص التالي. وهناك حبل آخر يُشدّ حول خصر الغوّاص وبهذا الحبل يجرّه المساعد حينما يعطيه إشارة. لا ضرورة لهذا المساعد إذا كان الغوص في مياه ضحلة بعمق عشرين قدماً، ولكن حين يكون العمق أكبر، أي من خمسين إلى خمسة وسبعين قدماً وحتى تسعين قدماً في بعض الأحيان، فان المساعد لا يمكن الاستغناء عنه.

يضع الغوّاص شيئاً ما على أنفه أشبه ما يكون بملقط غسيل (يسمّى الفطام). يأخذ الغوّاص نَفَساً عميقاً ويغوص مرة أخرى، وباستطاعته أن يبقى داخل الماء لحوالي دقيقتين، وفي خلال ذلك يطوف هنا وهناك على القعر لاقطاً المحار الذي يجده هناك، ومالئاً سلة صغيرة معلّقة بحبل حول رقبته. هذه السلّة بحجم القسم الأعلى من قبعة. وأصابع يد الغواص ملفوفة بغطاء واقٍ قوي، إذ ليس من السهولة إزاحة المحارة واقتلاعها من مكانها في غالب الأحايين. وحينما تمتلئ السلة، أو حالما تمرّ عليه الدقيقتان وهو تحت الماء، يعطي الغوّاص إلى مساعده إشارة، فيسحبه إلى السطح. تُفرّغ السلّة من المحار على ظهر المركب، وبعد أن يرتاح الغوّاص لفترة قصيرة، يعود إلى الغوص مرّة ثانية. يتواصل هذا العمل، بلا استراحة أو باستراحة قصيرة حتى

غروب الشمس. لا يأكل الغواصون شيئاً في الصباح، ولا يأكلون شيئاً طيلة ساعات اليوم. يعتقد العرب أنه من المستحيل الغوص إلاّ بمعدة فارغة، وعلى هذا فالغوّاصون لا يتناولون شيئاً، إلاّ قليلاً من القهوة، وربما بين فترة وأخرى، تمرة أو تمرتين. وعند غروب الشمس، يصلّون، وبعد ذلك تأتي وجبة العشاء الكبيرة، ثم تأتي فترة النوم حتى الصباح.

ثمرة الغوص كومة من المحار بعضها صغير الحجم وبعضها كبير، ويعتمد ذلك على نجاح ذلك اليوم. إنّ أول فقرة في برنامج اليوم التالي، هي فتح ذلك المحار، والكشف عمّا إذا كان فيها أيّ لؤلؤ. يجلس الرجال بصفّين، صف على كل جانب من المركب الصغير، وأمام كل غوّاص كومة صغيرة من المحار. يجلسون القرفصاء متصالبي السيقان، وعليهم ملابس قليلة، بينما يجلس النوخذا في مؤخرة السفينة، حيث يكون كل الرجال تحت مجال نظره وهو يعملون. يُفتح المحار بسكينة مسطحة رقيقة، ويفتش الغوّاص بحذق في كل الأماكن التي علمته الخبرة أن يفتش فيها عن الأشياء المتلألئة الصغيرة، التي تباع بثمن غالٍ في أسواق العالم. من المستحيل على أيّ واحد أن يخفي لؤلؤة في أغلب الأوقات، أثناء عمله. فبالكاد عليه لباس كافٍ لمثل هذا الغرض، ثمّ إن عين النوخذا المترصدة لا تطرف عنه لدقيقة. وحين يُعثر على لؤلؤة صغيرة، كما هي الحال في معظمها، فإنها تزاح إلى إصبع قدم الغوّاص الكبيرة أو إلى إبهامه. وأثناء تقدم العمل، سيكون لدى الغواصين صف من اللآلئ الصغيرة، تمتد ربما بطول الإصبع الكبيرة إلى القدم حيث تلتصق بها اللآلئ لأنها رطبة. وحينما يكون عدد تلك اللآلئ الصغيرة كافياً، أو إذا وُجدتْ لؤلؤة كبيرة فعلاً، يؤخذ كل شيء إلى

النوخذا، الذي يضع بكل عناية كل اللآلئ في كيس صغير مصنوع من نسيج صوفي أحمر، ويضمّها في مكان أمين. وحين يتم هذا العمل، يبدأ الرجال بالغوص. إن التأخير الذي يسببه فلق المحار والبحث عن اللآلئ في صيد اليوم السابق، لا يستغرق في العادة إلاّ ما بين نصف ساعة إلى ساعة.

إن المهارة المتطلبة في العمل صغيرة، وحتى الغرباء الجدد لا يواجهون إلاّ صعوبة قليلة ليكونوا مؤهلين كغوّاصين حتى وان لم تكن لديهم خبرة سابقة. وقد رُويتْ قصص عن بدو من الصحراء، لم يتعلّموا السباحة أبداً ولكنهم ابتدأوا بشجاعة بالغوص مع رجال من ذوي الخبرة. رجال من هذا النوع يشقّون طريقهم بصورة حسنة، إلاّ انهم في بعض الأحيان يغرقون. ينطلق الصبيان في العمل أحياناً وهم في سن العاشرة، كطباخين، أو مساعدين ثانويين، وبعد زمن قصير يصبحون غوّاصين إذا ما رغبوا في ذلك. وعلى الرغم من أن العمل يتطلّب مهارة قليلة، إلاّ انه يتطلب كثيراً من الشجاعة والجَلَدْ، وحتى يكون الغوّاص ناجحاً حقاً، فان درجة لا بأس بها من الاستعداد الطبيعي، والقوة، ضرورية له. فالغواص النشيط الذي يمتلك في نفس الوقت، روحاً مرحة تسري في الآخرين، يثمّن عالياً ويلاقي معاملة إضافية طيبة. إن نجاح الموسم، على أية حال، لا ينتج من قوّة الرجال ومهارتهم إلاّ جزئياً، فتقلبات السوق محض صدفة، بقدر ما يتعلق الأمر بالغواصين، ونجاح الصيد هو بالمثل عامل متقلب. فالطقس يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار كذلك، إذ من المستحيل الغوص أثناء العواصف، وعند هبوب الرياح الشمالية الغربية المسماة بريح (الأربعين) التي قد تأخذ عدداً كبيراً من أيام العمل في التقويم.

تمتد مغاصات اللؤلؤ إلى أميال في مياه الخليج الفارسي الضحلة. وفي بعض الأحيان يمكن أن يوجد المحار الحامل للؤلؤ حيث يكون الماء ضحلاً جداً، لدرجة أن الجزر بالذات في بداية ومنتصف كل شهر قمري يترك قعر البحر مكشوفاً. مع ذلك، يجري معظم الغوص على اللؤلؤ، في مياه عمقها في الأقل أربع قامات، أو أربعة وعشرين قدماً. أمّا في المياه التي يكون عمقها أكثر من خمس عشرة قامة، أو قل تسعين قدماً، فما من أحد يغوص فيها، فالعرب يصرّون على أن لا يوجد محار يحمل اللؤلؤ في عمق أكبر. إن أيّ قعر صخري بين هذين العمقين منطقة ملائمة لصيد اللؤلؤ. ثمة مغاصات للؤلؤ مشهورة بأنها أماكن صيد جيدة، غير أن معظم الصيد في موسمه يتصف إلى حد بعيد بطبيعة البحث، والتخمين، محاولة هنا، ومحاولة هناك، في أماكن يُذكر عنها بأنها جيدة للصيد. أما عدد مراكب الغوص العاملة فكبير، لكن المنطقة المتيسرة للصيد واسعة، فليس هناك من ازدحام، ومغاصات اللؤلؤ منتشرة على طول الساحل العربي في الخليج الفارسي لمسافة قد تصل إلى ثلاثمائة ميل، لذا فالفرصة لكل مركب وافرة.

أيضا فإن اللؤلؤ تلك مجانية مثل الهواء.. ما من أحد يمارس عليها أية هيمنة، وما من أحد يدّعي لنفسه امتياز فرض إيجار على استعمالها. الضريبة الرسمية التي يأخذها شيخ الكويت من كل مركب كويتي، هي ببساطة ضريبة تُجمع من أبناء مدينته. يجبي شيخ البحرين رسماً صغيراً من كل مركب، ويعتمد المبلغ على عدد الأفراد الذين يحملهم. إن الخليج الفارسي بحيرة بريطانية، بقدر ما يتعلّق الأمر بضبط الأمن، وقد منع الإداريون البريطانيون بما يتمتعون به من حسّ، ونزعة عملية في عمل الخير، إدخال وسائل حديثة للغوص على اللؤلؤ. وكنتيجة لذلك، فلا تعمل في تلك المغاصات إلاّ المراكب المحلية،

فلو استعملت المكننة، وشباك الصيد وما شابه، لاستهلكت بلا شك مكامن صيد اللؤلؤ في غضون سنوات قليلة، ولذهبت الأرباح الكبيرة إلى عدد قليل من الأفراد، ولكان ذلك يعني القضاء على كل مجتمعات الغوص. الغواصون مدينون بالشكر لبريطانيا العظمى، على الرغم من أنهم لا يدركون ذلك، وأقل من ذلك لا يثمّنون صنيعها.

يتم تمضية حوالي خمسة أشهر في الصيد الفعلي للؤلؤ، وبين كل ثلاثة أسابيع أو نحو ذلك، يعود المركب إلى مرفأ مناسب أكثر ليتزود بالماء النقي والطعام ولتنظيف قعره. ومع تلك الفترات القصيرة للاستراحة، فان العمل متواصل طيلة الموسم، ويتوقف رسمياً بأمر من شيخ المنطقة في يوم معين، حتى لا يدع نواخذة المراكب الجشعين يلزمون الغواصين بالعمل في مياه باردة غير مأمونة. يأخذ النواخذا بعد ذلك صيد الموسم من اللآلئ إلى بعض التجار، ويبيعه بما يحدّده السوق من سعر.

ليست مغاصات اللؤلؤ هي الفسحة المجّانية الوحيدة التي أبقاها البريطانيون مفتوحة للغوّاصين العرب، بل إن أسواق بيع اللآلئ حرّة هي الأخرى. الشرقي على وجه الخصوص، عديم الضمير في مضارباته في الأسواق التجارية، وفي الهند، كما يحدث أحياناً، فكل ما تستطيع الحكومة أن تقوم به، أو في الأقل رغم كل ما تشعر به من حرية للعمل هو التركيز على المواد الغذائية. لقد وُجِّهتْ تلك الأسواق وبنجاح كافٍ لتدرّ كثيراً من الأرباح على التجار وكثيراً من المعاناة على عامة الناس. ما من شيء من ذلك حدث في سوق بيع اللؤلؤ، فللتجار الفرنسيين من باريس مقرّ مفتوح في بومباي طيلة أيام السنة، إلى حيث قد يأتي رجل لبيع لآلئه. التجار الفرنسيون يتكلمون اللغة العربية

بطلاقة، وهم يشترون اللآلئ شخصياً. فلحوالي ثلاثة أشهر من الموسم كثير النشاط، يرسلون واحداً من شركائهم في الشركة ليقوم بدور المشتري في البحرين نفسها، حتى يكون السوق الباريسي متيسراً عملياً، لأفقر التجار والغواصين في البحرين. ومما يُدخل الغبطة في القلب مشهد تعامل هؤلاء المشترين، الدمث رفيع الخلق. وإذا ما اقتصرت صلة الجزيرة العربية بالغرب على رجال من ذلك النوع، فلن يكون في طريقها إلا قليل من الأشواك والأحجار.

تحصل مجموعة من التجار العرب والهنود الصغار على نسبة معينة من الصيد، من ناحية كتجارة مشروعة، ومن ناحية أخرى، كمغامرة في المضاربات. هناك دائماً في البحرين والهند، مضاربات واسعة فيما يتعلق بتقلبات أسعار اللؤلؤ، وهي شأنها شأن المضاربات الأخرى، تحمل معها إغراءً كبيراً. كثير من هؤلاء التّجار مسحورون باحتمال الشراء برخص، والبيع بثمن غالٍ، وهم كثيراً ما يتعاطون بكميات كبيرة من الأموال يستدينونها من الآخرين، فإذا انتهت الصفقة بانهيار، فما وراءه إلاّ الإفلاس التام. والتقلبات في أسواق اللؤلؤ واسعة جداً، فاللؤلؤ الذي سعره ألف روبية في هذا الموسم، قد يتضاعف أو يكون نصف سعره في الموسم اللاحق، وقد تهبط الأسعار في حالات نادرة إلى نصف أسعارها بين عشية وضحاها. وعلى هذا، فكل واحد في الغالب يصاب بحمّى المضاربات خلال الموسم. أذكر أنني رأيت عبداً مسناً وقد أتى بلؤلؤ صغير قليل، ومشوّه الشكل إلى تاجر لؤلؤ. قال: لقد اشتريت هذه بثمان آنات (= ستة عشر سنتاً)، وآمل أن أبيعها باثنتي عشرة آنة.

يذهب خُمس ربح صيد الموسم إلى صاحب المركب كأجور على

استعماله، ومن الباقي تُقتطع النفقات على الطعام والماء وما أشبه، أما ما تبقّي من المال فهو أرباح الموسم. يتسلّم كلّ غوّاص حصة متساوية منه، وكل مساعد (السّيب) يتسلّم ثلثي حصّة الغوّاص. أما النوخذا الذي لم يقم بالغوص، ولكنه قام بالمراقبة فيستلم حصّة مساوية لحصّة الغواص، ومثلها حصّة حاكم المدينة في بعض الحالات، وتعتبر حصة الشيخ، ضريبة حكومية على هذا النوع من العمل.

يبدو هذا نظاماً صالحاً من الناحية النظرية لا يعلوه نظام، ولكنه من الناحية التطبيقية، لا أسوأ منه. فالغواصون أميّون لا يقرؤون ولا يكتبون، وعلى هذا فليس لديهم من سبيل لمعرفة ما إذا قيّدت حساباتهم أم لا. انهم قد لا يساعدون في البيع، وقد لا يكونوا حاضرين أثناء عملية البيع، لذا ليست لديهم أدنى مقاييس للتحقّق ممّا يفعله النوخذا، وليست لديهم الوسائل لحماية أنفسهم إذا ما قام بغشّهم. والنوخذا نفسه بين قطبي الرحى، فالطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن يستأجر مركباً للصيد، هي بإعطاء عهد لصاحب المركب ببيع لؤلؤه له، ومن صاحب المركب هذا قد لا يتسلّم أكثر من خمسين بالمائة من سعرها في السوق. وحتى هذا السعر المنخفض لا يتسلّمه الغواصون بدون تخفيض، لأن النوخذا يغتني سرّاً على حسابهم، قبل أن يسجّل البيع. ليس هذا فحسب وكأن الأمور ليست سيئة بما فيه الكفاية، يكون الغواصون، مدينين للنوخذا مسبقاً، ويبقون مدينين له طيلة حياتهم بلا استثناء في الغالب.

حقيقة إن كل الغواصين تقريباً مدينون، فذلك من صنع أيديهم إلى حدّ ما. فحينما يشرع الرجل في عمل الغوص، فإن بإمكانه تجنّب استلاف المال، إذا ما كان مصمماً على ذلك. فموسم الغوص يدوم

خمسة أشهر فقط في أقصى تقدير، وقد يكون ربح الموسم كافياً لأن يعيش عليه طيلة السنة باقتصاد وحرص، وإذا لم يكن للغواصين الكفاية، فقد يجدون عملاً يغطّون فيه مصاريف أشهر الشتاء. إن هذا، على أية حال، ليس هو المسار الفعلي للأمور. فالصبي الذي في جيبه خمسمائة روبية لأول مرّة في حياته متحمّس لقضاء وقت ممتع. وفي غضون شهر أو شهرين يصرف الفلوس كلها.

أن النوخذا يشجّع الصبي على سلوكه هذا، ويُطمئن الصبي على أنه سيقرضه بسرور أي مبلغ يريده. الشيء الوحيد الذي يرغب فيه النوخذا هو تسليف الغواص الجديد بعض المال، أما حرصه على جعل نفسه لطيفاً وودوداً فذلك شيء يثير السخرية تماماً. من سوء الحظ لا يجد النوخذا إلاّ صعوبة قليلة في إغراء الغوّاصين الجدد على الدين. أن ربح الموسم يصرف في خلال أسابيع قليلة، وقبل انتهاء الشتاء يكون الغوّاص مديناً بمبلغ يساوي المبلغ الذي حصل عليه أو من المحتمل أن يكون أكبر منه.

وبذا يصبح الغوّاص عبداً إلى نهاية حياته. ومن المحتمل أن يهرب عبد زنجي في (ساحل القرصنة) بسهولة أكبر من هرب غوّاص بحريني لاستعادة حريته.. وما دام مديناً، فانه لا يستطيع أن يغيّر صاحب عمله، حتى ولو عامله معاملة سيئة، كما أنه لا يستطيع أن يهجر المدينة إلاّ بكفالات تضمن عودته قبل بدء موسم الغوص. ولا يمكن له أن يتخلّص من الدَّين مطلقاً. إنه لا يقرأ ولا يكتب. وليس هناك من شاهد بينه وبين النوخذا حينما تتمّ العقود والإتفاقات، ومن المسلّم به بالنسبة إلى الغواصين أنهم يستلفون قرضاً عينياً من الأرز، حينما يبدأ الموسم، حتى يكون لعوائلهم شيء ما يقتاتون عليه، بينما

يكون رب العائلة بعيداً. إن المبلغ المستلف المكتوب في الدفاتر التجارية أكبر بحوالي خمسين بالمائة على الدوام من سعر الأرزّ في السوق. وإذا ما اقتضت الضرورة يُدخل النوخذا قيداً حسابياً كاذباً. جوهر المسألة هي أن هؤلاء الغواصين لا يمكن لهم أن يتخلّصوا من الدين، ولا واحد بالألف منهم. ففي أثناء وجودي في البحرين لمدة سبع سنين، لم ألتق قط بغوّاص (تخلّص من دفتر الحسابات) كما يقول العرب.

أن المقدار الذي يعود على الغواص من جرّاء عمله في الموسم هو في الوقت الحاضر مسألة ليست لها أهمية.. ومهما كان عِظم المقدار، فكلّ ما يحصل عليه هو أن المبلغ يكتب لحساب الغوّاص، في دفتر الحسابات، ويُعطى مقدماً إذا طلب ذلك، في حين أن النوخذا راغب في الاستجابة للطلب. ثمة أوقات معينة، خلال السنة لإعطاء تلك السّلف كما جرت عليه العادة، في بداية وختام موسم صيد اللؤلؤ، ومرّة أو مرتين خلال الأشهر التي يتوقف خلالها العمل. يعني الموسم الجيد، بصورة ما، سُلَفاً سخيّة أكبر، ويعني الموسم الفاشل سُلَفاً أصغر. لذا فالغوّاص، في كل هذا، تحت رحمة النوخذا بكل ما في الكلمة من معنى. إنه في واقع الأمر يحصل في السنوات الاعتيادية على مقدار يكفيه طيلة حياته، وهي حياة أكثر راحة من حياة البدو. إن مستويات الغوّاص المعيشيّة، أقلّ بدرجة كبيرة من مستويات معيشة المزارع في البساتين، في واحة حسنة، ومن مصلحة النوخذا، بالطبع، أن يكون غوّاصوه حَسني التغذية وراضين، وأن يظل سحر الغوص على اللؤلؤ مستمراً، لأن ذلك سيجذب آخرين إلى هذه المهنة، لذا يقام عرض كبير لعدّ إيرادات الموسم، ويتسلّم الغوّاص النادر غير المدين مكافأة سخيّة من عمله المنهك في الموسم. لكن النقطة الجوهرية، بالطبع، هي

القانـون الذي يمنع الغواص الذي أُسيئت معاملته وغير الراضي من تغيير صاحب عمله، أو من تغيير مكان إقامته.

بإمكان النوخذا، إعطاء غواصيه مبلغاً يسـمح لهم بحياة أفضل بكثير من حياتهم، ولكن من المشكوك فيه أن يقوم النوخذا بذلك، إلا إذا أن انقلبت ضدّه عواطف الناس وأصبحت مهددة له. الشيء الذي لا يمكن أن يقوم به النوخذا هو موافقته على تغيير القانون الذي يسلّم في الوقت الحاضر، المدين إلى يدي الدائن، روحاً وجسـداً. ولكن ثمّة ميـزةً موازنة في النظام وهـي أن الديون غير قابلـة للتحويل من الأب إلى الابـن، ومن ناحية نظريـة، فإن الابن يبدأ حياتـه العملية بصحيفة بيضـاء، ولكـن في كثير من الأحيان يناشـد الدائن، إبـن المدين مذكّراً إيّـاه بوفائه لأبيه، وهكـذا يأخذ الابن على عاتقه تسـديد ديون والده. وتسـمح هذه الطريقة للأب المسـنّ بأن يتقاعد من حيـاة الضيق. وما من شيء يناسب النوخذا أكثر من هذا، فبهذه الطريقة يُحرم الصبي من فرصته الوحيدة ليبقى حرّاً من العبودية التي قيدّت والده.

وعلى الرغم من عيوب العمل الاقتصادية، إلاّ أن له سحراً كبيراً على السكان، ومردّ ذلك يعود إلى عنصر الحظّ، إلى حدّ كبير. فالشرقيّ مغامـر مدمـن، والعـربي لا يشـذّ عن القاعـدة. وقد يحصـل الغوّاص في بعض السـنوات على مكافأة لا تسـاوي شيئاً. بينما في موسـم آخر قـد يحصـل على ألف روبيـه، أو حوالي ثلاثمائة وخمسـين دولاراً. وبين عشـية وضحاها قـد يتغير مظهر الموسـم برمته.. فقد يُعثـر على لؤلؤة يقـدّر ثمنها بخمسـين ألـف روبيـة، في أي وقت، وأكـبر لؤلؤة بيعت محلياً، كانت خلال السـنوات العشر الماضية، ووصل سـعرها إلى مائة وعشرين ألف روبية. يروي العرب قصصاً عن مراكب باع غوّاصوها

بـما مقـداره ألفا روبيـة وأكثر في موسـم واحد لكل غـوّاص على ظهر المركـب، لكن من الصعوبة العثـور على أفراد خرافيين كهؤلاء، ولكن من السـهولة العثور على غوّاص عجز عن الحصول على روبيتين. على أيـة حال، وحتى نعطي هـذه المهنة حقها، نقول بأن أفـراد مثل هؤلاء الذين لا يجدون روبيتين نادرون أيضاً.

ففي موسم مناسب، يكون ما يحصل عليه الغواص بين ثلاثمائة إلى سـبعمائة روبيـة، أو مائة إلى مائتـين وخمسـين دولاراً، حيث يتم في نهاية الموسـم تسـجيل الربح، أياً كان ويُوزّع المال. يتسـلّم كل غوّاص حصته، ويتسـلم المسـاعدون ثلثـي الحصّة، أمّـا الغوّاصـون المدينون فيتسـلّمون تقريباً مكافآت إضافية سـخيّة، وتمتلـئ المدينة بالغوّاصين المبتهجين الذين عادوا للتوّ من عمل مرهق دام أربعة شـهور أو أكثر، حيث كانوا خلال هذه الشـهور نصف جوعى، ولم تكن لديهم فرصة للمتعـة والابتهـاج، شرعيّـة كانـت أو خـلاف ذلـك. والنتيجة، هي بالضبط ما قد تكون متوقعة، فالسـجّاد الإيراني في الأسواق تتضاعف قيمته المعتادة، شـأنه شأن أي سلعة أخرى قد يرغب فيها الغواصون. اللحم يصعد إلى أعلى سعر له خلال السنة، ويصدق القول كذلك على السمك الذي يفضّله الغوّاصون على أية طعام آخر. وتشمل المغامرات كل أمرٍ تقريباً، حتى الفجور يزدهر. وتسـتمر هذه الأمور لمدة شـهر، وربما شهرين من عودة الغوّاصين، الى أن تستقّر الأمور تدريجياً ويعود الركود الشتائي إلى أن يحل موسم الصيد التالي.

نفس الشيء يحدث بصورة مصغّرة حينما يفتتح موسـم الغوص التالي، حيث يدفع النوخـذا المال للغواصين كدين مقدّم، وتقام بعض الإحتفـالات. وبتعاون ورفقـة الجميع يكتمل الإعداد للموسـم. أمّا

صوت المغني فيُسمع حتى ساعات متأخرة من الليل. والغرباء يأتون من كل حدب وصوب لمرافقة المراكب والعمل كغواصين جنباً الى جنب الغواصين المحليين.. حينها ترتدي المدينة حلّة زاهية لا ترتديها ثانية إلا في موسم الغوص التالي.

على هذه الصورة، تبدو المدينة فاتنة لدرجة مدهشة، وهي تخفي تحتها مهنة وأسلوب حياة، هما حتى في عيون سكان الجزيرة العربية متعبة وفي منتهى البؤس والمرارة. فحياة الغوّاص، حياة فاقة وشدّة وقسوة. وفي الموسم غير الموفق، لا يجد الغواص ما يأكله إلاّ بصعوبة. إن حظه أسوأ من حظ المزارع في بساتين النخيل بما لا يقبل الشك. الغوص يهدّم الصحة، في حين لا يمكن لأي عمل آخر في الجزيرة العربية أن يهدمها مثله. فالضغط العالي للماء في الأعماق البعيدة، يمزّق طبلتي الأذنين في كثير من الحالات، ويمكن الحدس بوثوق، بأن ما من مجموعة بشرية مساوية في حجمها لمجموعة الغواصين، في أي مكان في العالم، ويظهر فيها عدد كهذا من الأذان المصابة بالتقيّح المزمن. الرئتان مصابتان في غالب الأحيان، وعلى طول ساحل الغوص، يشيع التدرن الرئوي. وليس هذا أمراً غير عاديّ، إذا علمنا بأن في أيام افتتاح الموسم يغوص الرجال في ماءٍ باردٍ جداً، لدرجة تجعلهم معها يبصقون دماً. وكثير منهم يعودون من ذلك الصيف الشبيه بالمجاعة، ومن الطعام غير المناسب من الرز والتمر، ولثّاتهم متقّرحة ونازفة من داء الأسقربوط.

الأوضاع المعيشية لمعشر الغواصين، هي كما يتوقعها أي شخص. المرض متفشٍ، ومعدل الوفيات بينهم مرتفع. الفاقة شاملة، إذ لا يرتفع مستوى المعيشة في سنوات الخير كثيراً، بينما ينخفض في

السنوات الرديئة إلى حدّ المجاعة. وخلال سنة صعبة، يكون غذاء الغواص شحيحاً، وفقيراً من حيث نوعيته، وقليلاً من حيث الكمية، وهو في الغالب بدرجة جوع جزئي. إنهم يعيشون عادة في بيوتهم غير المدفأة لأنهم لا يمتلكون الفلوس لشراء الوقود.

في مثل هذه المجموعات ينعدم أو يكاد، أيّ اهتمام بالتعليم. لدى كل غوّاص ما يكفي من أسباب، تجعله راغباً في تعلّم القراءة والكتابة وتدوين حساباته، ولكن من النادر أن نجد واحداً منهم قادراً على ذلك. ومن غير المعتاد، كما يبدو، أن نجد واحداً يحاول تعليم أولاده حتى يمكن لهم أن يتخلصوا من العبودية التي تقيّده وقد تقيّدهم. لكن كثيراً ما يؤخذ الأولاد لتعلّم الغوص على اللؤلؤ، وهم دون سن الثانية عشرة. حاولت الإرسالية التبشيرية الأمريكية في البحرين، لسنوات عديدة، تطوير برنامج تعليمي أوّلي، ولكن وجدت ذلك مستحيلاً من الناحية العملية، بسبب عدم وجود إقبال على أشياء كهذه. بينما بذلت المجموعات الإيرانية الموجودة بكثرة في المدينة، جهوداً من حين لآخر لإنشاء مشروع تعليمي لأولادهم من وقت لآخر، وحتى هذه المدارس تظهر على السطح لوقت قصير، ومن ثَمّ تنقطع وتختفي، ولا يهتم إلاّ القليل باستمرارها أو انقطاعها. من الجدير بالذكر أن أحد شيوخ البحرين قام بزيارة لإنكلترا، تلبية لدعوة من الحكومة البريطانية، قبل حوالي ثلاث سنوات، ولدى عودته جمع حوالي مائة ألف دولار لتأسيس مدرسة داخلية خاصة مجانية. خصصتْ بناية كبيرة لهذا الغرض، ولكن بسبب عدم الكفاءة، وعدم الاهتمام، إن لم يكن هناك سبب أسوأ منهما، صُرف المبلغ بكامله على الطابق الأول من تلك البناية، والآن فتر المشروع، ويبدو على وشك

المـوت، لأنّ ما من أحد يهتم إن مات أو عاش. وحتى مدارس القرآن قليلة من حيث العدد، وفقيرة من حيث النوعية. ليس هناك شيء يشبه انتشار التعليم في المدن الداخلية.

وعلى الرغم من أن غالبية السكان في المدن هم غوّاصون إلاّ أن هناك عدداً صغيراً من صيادي الأسماك، وعدداً أقل يكسب رزقه المتقلقل من الاشتغال كبحارة في المراكب الشراعية العربية. هناك سمك وافر في جميع تلك الموانئ، إلاّ أن مهنة صيد الأسماك غير محبوبة. إنها مهنة صعبة كريهة، وعلى السماكين أن يخرجوا دائماً في زوارق صغيرة في الليل بطوله، ولكن حيث تطيب الأوقات وتكون مكافآت النوخذا سخية، عند ذاك ما من أحد يرغب في صيد الأسماك. وحينما يكون صيد اللؤلؤ سيئاً، أو حين تكون أسعاره منخفضة، يشعر كل فرد بأنه فقير، ولكنّ كثيراً منهم يتحايلون على الأمر فيضيفون إلى مواردهم الصغيرة، بالقيام بأعمال إضافية، فيصبح السمك وافراً ورخيصاً.

كانت في يوم ما السفن الشراعية المسافرة بالبحر كثيرة وهي منهمكة بنقل مختلف الحمولات من ميناء إلى ميناء، في هذه المنطقة، لأن العرب ملاحون شجعان، ويستطيعون الإبحار بتلك السفن من الهند إلى قناة السويس. إنها ما تزال تجلب البضائع من موانئ مختلفة في أفريقيا الشرقية، إلى الجزيرة العربية، ومن النادر أن يفشلوا بالقيام بتلك الرحلات الطويلة، إلا أن الشغل صعب، وما دامت بواخر الإنكليز، قد أخذت التجارة أكثر فأكثر، فان أرباح المركب الشراعي تناقصت، ونسبة السكان الذين يعيلون أنفسهم بهذه الطريقة صغيرة.

على أية حال ما دام كل مأكل وملبس هذه المجموعات لا بدّ له من أن يُستورد، وفي بعض الأماكن حتى الماء وموارد البناء، فان

التجارة في الخليج الفارسي تصل إلى مقادير كبيرة. ويستورد الرز بمئات آلاف الأكياس كل سنة، حيث تجلب باخرة خاصة تابعة لشركة نفط ستاندارد، الكيروسين من نيويورك. وهناك استيراد كبير للملابس الأجنبية الأكثر متانة والأرخص سعراً. ويجلب الأرز والكيروسين ومختلف السلع، كالصحون والفوانيس وكل أنواع الحلي المبهرجة، من الهند بواسطة سفن بخارية تجارية، ولشركة (ستيمشب) البريطانية الهندية خط للسفن التجارية في السواحل، وهي تقف كل أسبوع في موانئ الخليج الكبيرة. في حين تُجلب بعض المواد الغذائية من بلاد الرافدين ومن إيران، أما المستوردات الأصغر حجماً فتجلب من موانئ قريبة بواسطة سفن شراعية في الغالب. يتم الدفع مقابل هذه المستوردات باللؤلؤ بصورة غير مباشرة، ولقد بلغت قيمة اللؤلؤ في الموسم الأخير، قبل الحرب العظمى (موسم عام ١٩١٣) في الأسواق في البحرين، بما يقدر بثلاثين مليون روبية أو تسعة ملايين دولار أمريكي.

لا يوجد في كل أنحاء الجزيرة العربية تجار أغنياء بغنى تجار اللؤلؤ في الساحل الشرقي، ولا يوجد إلاّ القليل من هؤلاء التجار مَنْ يُعدّ في صفوف المليونيرية، إذا قيست ثرواتهم بالنقود الأمريكية. هؤلاء الرجال متعلّمون تقريباً، وسافروا بشكل واسع. كثير منهم يشتري الصحف، ويقرأ كتباً معاصرة، ومقرّاتهم مترفة مريحة مع كثير من المظاهر الخارجية للحضارة العصرية، وقد تضاء بيوتهم ومكاتبهم بالكهرباء، أما ذوقهم فيتسع للسيارات والزوارق التي تعمل بمحرّك. وفي الموانئ الأكبر، في الكويت والبحرين ودبي مجموعات كبيرة أيضاً من الحرفيين والتجار الأقل ثراء. يقوم أولئك أولاً بخدمة الغوّاصين

المحليين، وثانياً كصنّاع وكبائعين بالجملة لكل مَنْ في وسط الجزيرة العربية. وعملياً فان جميع تجارة الاستيراد والتصدير إلى داخل شبه الجزيرة العربية، تمرّ عبر هذه المدن الثلاث، لذا فجماعات التجار والحرفيين كبيرة ومزدهرة.

من الصعوبة التفاؤل بشأن الوضع العام لتلك المجموعات من الغواصين، فالوضع المادي بالنسبة لهم سيئ بما فيه الكفاية، ولكن ما هو أسوأ من ذلك بكثير، الإحباط واليأس اللذان خيّما عليهم جميعاً. فما من أحد منهم يحاول بجدّ كبير التخلّص من الدين، لأنه يعرف تمام المعرفة، بأنه إن لم تقع معجزة غير متوقعة، فهو لا يمكنه تسديد ديونه، مهما اشتغل بجدّ وكدح، ومهما عاش باقتصاد وتقتير. ولا يخفى هناك تبذير صغير، إذ كثيراً ما يصدم الزائر الغريب، التبذير الذي يظهره الغواصون في مصاريفهم الشخصية والعائلية، فليس هناك أقل محاولة، مثلاً، لاكتشاف أي نوع من الملابس سيكون أكثر منفعة وديمومة، بنفس النقود التي دفعها. الكل سواء، غالية أم رخيصة، سيقوم النوخذا بتقديم سلفة أخرى، وما من شيء يسرّه أكثر من ذلك، وما همّ إن صرفها الغواص باقتصاد أم بتبذير.

الأوضاع التي أُوجزتْ أعلاه هي تلك التي تسود في المدن الشمالية وعلى الأخص في البحرين، وهناك جماعة كبيرة من صيادي اللؤلؤ في منطقة تدعى (ساحل القراصنة) وعاصمتها وأكبر مدينة فيها هي دبي. إن صفتها التاريخية كمحطّ ومنطلق للقراصنة أصبحت في ذمّة التاريخ الذي مضي منذ زمن طويل، ولكنها ما تزال تسبب كثيراً من المتاعب للبريطانيين الذي يقومون بخفارة الخليج للحفاظ على النظام على طول الساحل. لقد أصبحت الاضطرابات السياسية

حادّة قبل حوالي عشر سنوات، أو أكثر، ولم يكن يسمح لأي أجنبي بالنزول إلى الساحل لسنوات طويلة. لذا كان سروري مضاعفاً، بالدعوة التي تسلّمتها لزيارة ذلك الجزء من الجزيرة العربية قبل أربع سنوات. إنه البؤرة الوحيدة الباقية للرقّ في شرق الجزيرة العربية، وهي ما تزال تثير المتاعب في بعض الأحيان للرسميين، ولكن ما من شيء من ذاك، مكشوف لطبيب زائر. فالأغنياء والفقراء على السواء بمنتهى اللطف، والدماثة.

نظام الغوص على اللؤلؤ، في هذه المنطقة مشابه لما هو عليه في البحرين، لكن الغوّاصين هنا لا يشتغلون بنفس الجديّة والمثابرة تقريباً. إنهم يشرعون بالغوص في وقّت متأخر من السنة، على الرغم من أنّه لو كانت درجات حرارة المياه هي السبب الوحيد لقرارهم، لشرعوا في الغوص بأبكر من ذلك لأنهم يقيمون في الجنوب، ومياه البحر هناك تسخن قبل المياه في البحرين بصورة كبيرة. إنهم يرجعون إلى الساحل مرات أكثر، ويبذلون طاقة أقل بكثير في العمل. من ناحية أخرى فإن مغاصات اللؤلؤ في منطقة ساحل القراصنة أقلّ غنى من نظيراتها في البحرين، لذا، كما يمكن لنا أن نتوقع، فالصيد أقلّ قيمة بكثير من صيد المراكب في الشمال. ومن الطريف أن نرى أن مستوى معيشة الغوّاصين العام في ساحل القراصنة، شبيه بنظيره في البحرين تقريباً. إنهم لا يعيشون بمستوى أدنى بكثير، لأن ذلك يعني مجاعة. والنتيجة الوحيدة للإيرادات الكبيرة في منطقة البحرين، هي أنها أوجدت طبقة من تجار اللؤلؤ أكثر غنى من الطبقة المماثلة لها في ساحل القراصنة.

إن الرقيق، بلا أدنى شك، هم الذين قلّلوا مستويات ما يجب أن يكون عليه، عمل اليوم وعمل الموسم، إلى المستوى الحالي في ساحل

القراصنة. معظم هؤلاء الرقيق، زنوج من أفريقيا، وقليل منهم من البلوش، من ساحل مكران بين الهند وإيران. لا يصل عدد العبيد إلى نصف عدد الغواصين، ربما كان أقلّ من ذلك بكثير، إلاّ أن كسلهم ولا إباليتهم، من شأنها جرّ الباقين إلى مستواهم. لكن لماذا بالضبط لم يترسخ الرقّ في البحرين مطلقاً، لماذا لم يشتر العرب هناك الرقيق مطلقاً للقيام بالغوص بدلاً عنهم، ذلك شيء من الصعب فهمه، لأنها تبدو وكأنها طريقة سهلة للثراء. لكن، عكس ذلك، فإن أحد أسباب أن البحرين مجتمع أقوى اقتصادياً، في الوقت الحاضر من منافسيهم الجنوبيين، هو أنهم لم يجلبوا الرقيق بعدد كبير قط.

من أكبر المغريات هو ما تقدمه هذه الفرصة حيث يقوم الرقيق بالعمل، وما من شيء آخر، كما يبدو - سيدرّ أرباحاً أكبر. فليس للعبد حقوق، ويمكن فرض عقوبة عليهم، إن كانوا أقلّ جدّاً وكدّاً، من قبل النوخذا إذا رأى ذلك مناسباً. إنهم لا يتسلّمون أيّة أجور على الإطلاق، مجرد المأكل والملبس إذا رأى سيدّهم ذلك مناسباً. لم يكن العرب، هم الوحيدين الذين خدعتهم هذه المغالطة. لقد اعتقدنا نحن أنفسنا بذلك قبل مائة سنة، وكانت سياسة مفجعة بكل المعايير. ما من شيء يفوق لامبالاة وكسل الرقيق تحت ظروف كهذه، فالمبالغ التي تُصرف على الملبس والمأكل لهؤلاء الرقيق، لا تعود إلا بمردود صغير من حيث الخدمة المقدّمة بالمقابل، مردود أقل من الأجور التي تُدفع في الجزيرة العربية. وكل شخص راقبهم وهم يشتغلون أو راقبهم وهم يحاولون تفادي الشغل، يتأكد من تلك الحقيقة. أيضاً فإن البغاء متفشٍ في ذلك الساحل - ساحل القرصنة - أكثر من أي مكان آخر في شرقٍ الجزيرة العربية. أما العبدات فهن لعَب بأيدي أيّ إنسان يشتريهنّ، وما

بذره ساحل القراصنة في معاملة النساء الرقيق البائسات، يحصده في مناخ من الانحطاط يغلّف كل فئات المجتمع من أسفلها إلى أعلاها.

وكمقاومين سلبيين، فان هؤلاء الرقيق ممتازون. لقد رأيت واحداً منهم وهو مستاء من سوء معاملة، أو إهانة، فما كان منهم ببساطة إلاّ أن انهمك في العمل، وما من مجادلة أو تهديد يثيره كما يبدو. إن العبيد يؤمنون بالخرافات بزيادة، كذلك، وهم كثيراً ما تزورهم روح جنيّة تتملكهم تماماً. لا يؤمن العرب في ساحل القراصنة بالخرافات، فهم من المسلمين السنّة، وهذا النوع من العقيدة، لا يستسلم بسهولة إلى الخرافات. مهما يكن من أمر، فحينما يقفز واحد من هؤلاء الرقيق الزنوج، وكأنما جنّ فجأة، ويركض هنا وهناك صارخاً ومؤشراً، ومتكلماً بحماس بصوت متغيّر، وكأنما تلبّسه شخص آخر، فان حتى أقسى أسياد العمل العرب، يتهيبون ويترددون في إنزال العقوبة التي قرروها. قد تأتي زيارة الأرواح تلك في أكثر الأوقات ملائمة، وتتطلب جرأة أكبر مما يمتلكها العربي عادة للاستخفاف بتحذير كهذا. لقد رأيت أحد هؤلاء الرقيق يقفز فجأة، من طاولة العمليات، حينما كانت قد تمّت كل التحضيرات، وفي يدي مبضع الجراحة للشروع بالعملية لإزالة ورم من رقبته. كانت العملية ستجري بتخدير موضعي، لذا فالمريض بكامل وعيه. كنّا سعداء إنه لم ينتظر عشر دقائق أُخرى حيث العملية جارية. هؤلاء الرقيق ليسوا دجالين يتظاهرون، أبداً، إنهم يؤمنون تماماً بصدق تلك التجليات، لذا فهم لا يتفادون كل ضرب بالسوط، لأن تلك الزيارات، بلا شك، تحميهم من عدد معين من العقوبات الشنيعة على يد أرباب عملهم من العرب.

حتى السلطات المدنية في مجتمع الغوص، فإن السيطرة عليها

فعلياً بأيدي نواخذة مراكب صيد اللؤلؤ، وأيدي تجار اللؤلؤ. ففي مدينة رأس الخيمة، عدد من الغواصين يشتغلون في مراكب يعيش نواخذتها على الدوام في دبي والشارقة. وفي أحد فصول الشتاء وقعت منازعة من نوع صغير بين شيخ رأس الخيمة وبعض القبائل الداخلة في البر من تلك المنطقة، وتوسع هذا القتال بقوة شديدة، حتى أصبحت المدينة في حالة حصار تقريباً. لم يكن من الصعب صد أي هجوم على المرفأ نفسه، لكن، وبينما كان القتال مستمراً، حلّ موسم صيد اللؤلؤ، وعندئذ أرسل تجار الشارقة ودبي ممثلين عنهم لحلّ الخلاف، لأن غواصيهم حُصروا في المدينة، للدفاع عنها، ولم يأتوا للصيد. لم يكن الشيخ راغباً في عقد صلح، لكنَّ ضغط هؤلاء التجار الأغنياء كان أكبر مما يستطيع تحمّله، فأُجبر على تسوية الأمور مع رجال القبائل، حتى يستطيع الغواصون من الخروج والعمل في الغوص لتسديد ديون هؤلاء التجار.

الأوضاع في مجتمع الغوص، لا تسرُّ من يراها، وهي تبدو وكأنها من أكثر الأوضاع إثارة للشفقة، لأنها غير ضرورية. لماذا لا يتعاون جماعة منهم غير مدينين، أو جماعة من المبتدئين في استلاف رأس المال لشراء عُدد الموسم، أو - وهو الأفضل - لماذا لا يدخرون فلوسهم لموسم أو موسمين، ومن ثم يتجمع لديهم رأس المال الكافي للمشروع؟. فنصف أرباح موسم عاديّ، قد تسدُّ كل المصروفات، ونصف الأرباح الآخر لشراء المركب الذي ينقل الغوّاصين. مكامن اللؤلؤ حرّة، الأسواق حرّة، من السهولة شراء المعدات بنفس السعر الذي يدفعه كل فرد آخر. ستخضع إيرادات هذه المجموعة لنفس عامل الصدفة كما يحدث لأي غوّاص لؤلؤ، ولكنهم على أية حال،

سيحصلون على ضعف إيراداتهم التي يتسلمونها في الوقت الحاضر، لأنهم بهذه الطريقة يتجنبون ابتزازات النوخذا وتاجر اللؤلؤ. تستطيع أية مجموعة من الغواصين أن تفعل ذلك. فالمهارة التي يتطلبها الغوص عادية إلى أبعد الحدود، ورأس المال الضروري في متناول اليد بسهولة.

في الواقع لقد وُضِعتْ التجربة موضع التنفيذ، بين الحين والآخر، لكن لم أكن أتصّور البتة أنها ستستمر إلى أكثر من موسم واحد. الغواصون يخرجون للغوص بهذه الطريقة المتعاونة لصيف واحد، ولكنهم يعودون في السنة التالية مّرة أخرى كأجزاء من ماكنة قديمة، ما الذي يدفعهم للنكوص؟ تبدو المسألة من بعيد وكأنها حماقة قصوى، ولكن أيّ واحد على علم بالأوضاع المحلية، يعرف أن هذه النتيجة لا مفرّ منها. العرب ببساطة لا يقدرون على التعاون إلى تلك الدرجة. لا يثق بعضهم ببعض حتى في مؤسسة كهذه. ففي مجتمع، حيث المشاركة البسيطة في تجارة كهذه بين اثنين في السوق غير معروفة، فإنه مما لا جدوى فيه توقّع مجموعة من الغواصين أن تتعاون بنجاح في مشروع كصيد اللؤلؤ، حيث الرفق والثقة المتبادلة ضروريان، وحيث يكون الصيد حسناً في بعض الأحيان وسيئاً في أوقات أخرى. إن الطريق للخروج من مشكلة الغواص في الوقت الحاضر، واضحة بما فيه الكفاية، لكنها طريق غير ممكنة بالنسبة إلى العربي، بتكوينه في الوقت الحاضر. ما من طريق يمكن أن تكون أكثر صعوبة منه.. فتعاون بسيط قد ينقذه من إبتزازات نواخذة غير أمناء، وتجار لؤلؤ جشعين، ولكن العرب لا يمتلكون روح التعاون. لذا فما دام العربي غير قادر على تنظيم مهنته، لمصلحته هو، فالآخرون

ينظمونها لـه لمصلحتهم، ومما لا جدال فيه، أن المنظم يستغل الرجال الذين تحت إمرته إلى أبعد حدّ.

تكمن الصعوبة الأساسية بالغواصين أنفسهم.. فالغالبية العظمى منهم في البحرين هم من البحارنة، الذين ابتلوا بأرباب عمل يخدعونهم، ويحتالون عليهم، لدرجة لا تصدق في الغالب. وضعهم الاقتصادي يثير الرثاء. لكن العدد الصغير من الغواصين القادمين من الصحراء من ذوي الخلفيات القبلية البدوية يختلفون عنهم. فالبدو الذين جاؤوا وغاصوا لم يستغلّهم أحدٌ قط. أما النوخذا الذي يحاول أن يحتال عليهم، فسيفقد رأسه، وهو يعرف ذلك. و على هذا فالبدو الذين يتفادون ألدين كما يتفادون الطاعون يتسلّمون مكافآت عن أشغالهم أفضل بكثير من الآخرين. هؤلاء الرجال الهمج لا ينحنون لأيّة سلطة إلا لله في السماوات وهم ليسوا ضحايا هيّنين. إنهم في العادة يتعاونون معاً ويغوصون في مراكب بأنفسهم، وقد تجنبوا الدين، لذا فحريتهم ليست لها حدود. لقد سألت واحداً منهم، في يوم ما، بطريقة فكهة، عما إذا كان متأكداً من نزاهة نوخذاه في التسجيلات التي يقدمها للأسعار ولإيرادات الموسم. قال: (آه) بأوسع نوع من الابتسامات الجذابة. ثم قال: (ما ذاك الذي قلته؟ هل النوخذا يكذب بشأن سعر اللؤلؤ الذي يبيعه نيابة عنا؟ لا، بالتأكيد إنه لا يكذب. إنه يقول الحق. إذا حاول أن يتحايل علينا، ها آه).. وهنا اتسعت ابتسامته إلى أن رانت على كل وجهه، وسحب حافة يده عبر رقبته، إشارة إلى ما يعنيه (القتل والخنق).

ومن اكثر الأمثلة وضوحاً للغواصين الذين نجوا من الديون ومن عبودية الإستغلال، غواصو اللؤلؤ في قطر، التي يتواجد بها

مجموعـة صغيرة من الغواصين، حيـث كل الرجال عملياً بعيدون عن الديـن، ويعملون في مناخ الحرية والمسـاواة، والتعـاون الطيب، الأمر الـذي يتبايـن مع الأوضـاع في البحرين. تبدو على الرجال اسـتقلالية تامـة، واحـترام للـذات، ويسـتطيع هـؤلاء الغواصون تغيـير أرباب عملهـم، إذا لم يرضـوا بمعاملتهـم. باستطاعتهم الانتقـال إلى مدينة أخـرى ليعيشـوا فيهـا. إنهم باختصـار أحـرار. ومع ذلك فـان النظام الذي يشـتغلون بموجبه لا يختلف عن النظـام بالبحرين.. الغواصون هـم الذين يختلفون. إنّهم بدو أو ينحدرون من قبائل بدوية، ولذا فهم متحررون من الدين وكنتيجة لذلك، فالنظام يعمل بنجاح كبير.

في أحـد الأيـام، أصغيـت باهتمام إلى تاجـر من قطـر، بينما كان يعطـي رأيه بالوضع في مدينتـه، بالمقارنة مع الوضع في البحرين. قال: (أفهـم أن معظم الغواصين في قطر، غير مدينين، إن الغواصين في قطر ولا حتى واحد منهم مدين).

قلت له: (وماذا عن وضعهم، يجب أن يكون أفضل بطريقة ما).

أجاب: (لا يحتاج ذلـك إلى نقاش. بالطبع إنهم أفضل بكثير إن كانوا غير مدينين).

فسـألته: (كيـف تمّ للغواصـين في قطر أن يكونـوا غير مدينين، بينـما هنـا في البحريـن، كل غـوّاص مديـن، في الغالـب، إلى النوخـذا بأموال كثيرة؟).

أجاب التاجر، وقد ظننت أستطيع أنني أميّز في صوته نبرة أسى من التجار البحرينيين الأثرياء: (المشـكلة هي هـذه. ليس لدينا حاكم قـوي في قطـر. ما مـن فائدة من تسـليف الغوّاص. أنه سيسـتدين كل

ما أنت راغب في تسليفه إياه، ومن ثم يذهب للعمل لدى شخص آخر، على الرغم من الدين. فإذا حاولت أن تحتجزه في نهاية الموسم، أو تجبره على الدفع، فانه ببساطة سيترك المدينة ويعود إلى قبيلته في الصحراء، ومن الصعوبة إرجاعه. إن شيخنا، على أقل تقدير، لا يريد إرجاعهم واسترجاع الدين. وعلى هذا فالقرض، خسارة تامة. التجار لا يقرضون المال تحت ظروف كهذه، لذا فما من أحد مديناً). وارتفعت في رأسي رؤيا امتدادات حرّة كبيرة للصحراء، ورؤيا الرجال الذين لا يمكن التغلّب عليهم، هؤلاء الذين تلدهم الصحراء، والذين يعتبرون التملّك شيئاً طفيفاً، فيجبرون التجار وحتى الشيوخ على احترام روح استقلاليتهم واحتقارهم للمال الوسخ في هذا العالم.

(٥)

جلب الطب والجراحة إلى الجزيرة العربية

في أيام الخلافة ببغداد شهد العالم أكبر تقدّم في علم الطبّ عند العرب. وكان يتألف من مبادئ استقيتْ من الإغريق في مجملها، ولكنهم أضافوا عليها وطوّروها بطريقة، تُضفي بريقاً ومجداً على عقل العرب في ذلك الوقت. ولكن في عام ١٢٥٨م اجتاح المغول بغداد، ودمرّوا أسس الحضارة في صميمها، تلك الحضارة التي أصبحت فاسدة بدرجة لا تصدَّق. ومن بين الأعمال الوحشية التي وصمتْ مجيء هؤلاء المغول المتوحشين، عمل أصبح معه استرداد ما كان عليه الوضع الحضاري مستحيلاً. فقد دمّروا نظام الريّ الذي جعل بلاد الرافدين بستاناً للنخيل وحقول الفصة ومحاصيل الحبوب. ارتكزت حضارة الخلفاء على نظام الريّ ذاك، وبدونه تنقلب بلاد الرافدين إلى صحراء وتختفي الحضارة بكاملها. الطبّ العربي الذي كان أحد أمجاد تلك الحضارة، واجه نفس المصير، ولم يبق منه أي أثر، في حين ما من شيء في الجزيرة العربية إلاّ صحراء من الجهل والشعوذة، مرهقة وبلا علاج.

فالأدوية التي أساسها الشعوذة شائعة إلى أقصى درجة، ويظهر

بائعو الأدوية المتجولون في الأسواق العربية ما بين فترة وأخرى، وهم يبيعون بعض البودرة العجيبة، أو النشوق أو التعاويذ. ومزاعم ما تستطيع أن تفعله تلك الأدوية لا حدود لصفاقتها. يُفترض بالطبع أنها مصنوعة من مقوّيات أو مركبات تثير الدهشة والإعجاب، ولكنّ معظمها في الواقع لا يشتمل إلا على مركبات ساذجة اشتراها هؤلاء البائعون من نفس السوق قبل ساعات قليلة. تبرز محاليل الحديد والصلب بروزاً عالياً في قائمة الأدوية المثيرة للشهوة وهي تشكّل التجارة الرئيسية لمثل هذه الشعوذات. وهناك عقاقير أخرى ذات طبيعة أكثر غرابة.. ففي ساحل عُمان، أصابتني الحيرة مرّة عندما سمعت عن مرهم مشهور قيل عنه، إن فيه خاصيّة عجيبة في تخفيف الألم، وتعجيل شفاء القروح. وإذا أُخذ، داخلياً، فانه يشفي حتى الزحار، وبمرور الزمن تمكّنت من زيارة تلك المنطقة لأتحقق من ذلك العقار الشهير، فإذا به لا أكثر من مادة فرنسية لصقل الأثاث، بلون بنّي، ورائحة حادة، كانت قد اشتريت من أسواق بومباي. ولأنه لا يوجد أي واحد يقرأ الفرنسية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية، فقد بقي الجميع في جهل من أمر عقارهم المفضّل. وفي أحد الأيام، جرف البحر بعض انبوبات (قنينة زجاجية تحتوي على جرعة واحدة) للقاح، في نفس تلك المنطقة. لقد سقطت منها الرقعة التي تسجّل عليها محتوياتها، لذا لم أتمكن أبداً حتى من حدس طبيعة تلك المحتويات. التقطنا عدداً منها، وشرح لي الرجل الذي يمتلك واحدة من تلك القناني، قائلاً إنه كسر إحدى القناني الصغيرة واستعمل محتوياتها بمثابة عقار لقرحة مزمنة في ساقه، وقد أكّد لي أن القرحة شُفيتْ بسرعة لافتة للنظر.

لا يوجد أطباء في الجزيرة العربية، سواء أكانوا أطباء تعلّموا

في المدارس، أم ورثوا المهنة من الآباء إلى الأبناء أو من الأساتذة إلى الطلاب، شفهياً. لم أشهد، خلال تجربتي التي دامت اثني عشر عاماً أية بدايات أولية لأيّ شيء يمكن أن يُدعى مهنة طبية في أي جزء من الجزيرة العربية. ويشتمل الطب فقط على معرفة مسهبة عامة بعقارات نافعة معينة، وإسعافات ملائمة تقوم بها النساء للمرضى في بيوتهنَّ. لكن على أية حال، يجب أن نضيف هنا أن الطب والعلاج يختلفان عن المتعاملين بالطب الذين يطردون الأرواح الشريرة بالتعاويذ، ويحصلون على رزقهم من سرعة تصديق وخوف الناس الجهلة في بلدان كثيرة أخرى. وهذا بحّد ذاته مدعاة فخر بالنسبة إلى عرب الجزيرة.

فالدين المحمدي لا يفسح مجالاً لمثل هؤلاء، وهم لا وجود لهم في المجتمع على حدّ علمي. مع ذلك، توجد فكرة واحدة لدى العرب تتعلق بمرض ناشئ عن طبيعة خرافية، وهو الخوف من عين الحسود. وعلى هذا فيجب حماية الأطفال خصوصاً من التأثير المؤذي للحسد. ولدرء هذا الخطر فهم يستعملون التعاويذ والتمائم والآيات القرآنية. وما عدا تصديق الحسد، فان العرب لا يؤمنون بالخرافة على نحو لافت للنظر، إذا كان الأمر يتعلق بالأمراض، من حيث أسبابها، وعلاجها.

على الرغم من عدم وجود مهنة طبيّة، إلا أن معرفة طبية بنوع بدائي، موجودة في الجزيرة العربية. إنها الميزة الشائعة لدى كل شخص. فمن الطب الإغريقي القديم، استقوا أفكارهم عن علم الأمراض. فالأخلاط الأربعة وهي: الصفراء، والسوداء والبلغم والمخاط، تتصدر الاعتقادات بخصوص سبب المرض وتصنيفه. وللخاصيّات

الأربع أهمية كذلك. فقد يكون الشيء (حاراً) أو (بارداً)، (رطباً) أو (جافّاً). لا علاقة لهذه المصطلحات بالخواص الفيزيائية الفعلية، إنها تشير إلى التأثيرات في الجسم البشري أو إلى حالات الجسم نفسه. فالقهوة مثلاً (حارّة) و(باردة)، وإذا رُكِّبتْ بنسب مغلوطة من هذين العنصرين، فأنها قد تجلب المرض. (الريح) كذلك عامل فعّال جداً. إنها قادرة على الخروج من الجسد، في أوقات غير مرغوب فيها. لقد اكتُشِفَ أنها على الدوام تسبب إزعاجاً في الركبة، إلا أنها في البطن أكثر شيوعاً من أي جزء آخر. و يُعزى إلى (الريح) هذه كلّ ألم طويل متواصل، مثل الألم الناجم عن الروماتيزم المزمن، أو الإزعاج الناجم عن سوء الهضم المزمن.

للروائح أيضاً أسباب فعالة لنشوء المرض. أكّد لي (أب) مُتديّن مسنّ، قائلاً بوقار: (شممتُ قبل أسبوعين، رائحة نتنة، ومنذ ذلك الحين، وأنا أشعر بهذا الألم في صدري). هناك أكثر من حماقة تامة في هذه الفكرة. فبعض الروائح في الجزيرة العربية، كافية في الغالب لأن تسبّب الأمراض، وعلى الرغم من أن الصلة بين الرائحة النتنة والمرض ليست مباشرة، كما يفترض العرب، إلاّ أن الصلة، مع ذلك، صلة حقيقيّة. ان هذا التخوف من الروائح النتنة، في بلد تنعدم فيه التدابير الصحيّة، فكرة نافعة. وكإجراء للحماية من التأثيرات السيئة للروائح الكريهة، فكثيراً ما تسدّ المناخير، ولكن لم يخطر ببال العرب، كما يبدو، أن الهواء سيستنشق عن طريق الفم، وسيكون له نفس التأثير، إن لم يكن أسوأ.

إن الأفكار العامة المنتشرة والمتعلقة بالمرض، تشتمل على عدد معين من العقارات النافعة التي تباع في كل سوق، واستعمالها معروف

لدى كل شخص. فنبات (السنا) من أكثر العقاقير المسهلة رواجاً، ويُطلب باستمرار. يبدو أن الإمساك شامل في الجزيرة العربية، وبلا شك فان استعمال المسهّلات، مضرّ. وعلاوة على تلك المسهّلات، هناك استعمال، على نطاق واسع، للزاج الأزرق أو كبريتات النحاس، لمعالجة الرمد وبالمثل استعمال مختلف المشروبات الساخنة للحميّات.

أما استعمال الزئبق للزهريّ، فيمكن استنتاج السبب في ذلك. إنه يؤخذ لآفاتٍ ثانوية، لأن المرحلة الأولى والثالثة لا يمكن تمييزهما لكونهما مرتبطتين بنفس المشكلة. يؤخذ الزئبق مراراً، بواسطة الاستنشاق بدخان التبغ. يعطي هذا التبغ المشبع بمادة الزئبق كمية كبيرة من الزئبق المقسّم على نحو رائع، لدى رجّه في الماء. هذه الطريقة في تركيب العقّار، تكون باعثاً على إفراز اللعاب الشنيع، ولكنها، كما يبدو، ذات فعالية كبيرة في إزالة أوجاع الداء.

وبالإضافة إلى استعمال العقاقير، فان الكي رائج رواجاً كبيراً. فجميع أصناف الأمراض تُعالج بكيّ الجلد الخارجي للقسم المصاب، أو في الحقيقة جلد بعض المناطق الأخرى، الفكرة الواضحة من وراء ذلك بالطبع، هي خلق إثارة مضادة، وذلك شيء مفيد للغاية. لقد استعملْت الكيّ أنا نفسي، لعلاج مرض ذات الجنب المؤلم، فجاءت نتائجه طيبة.

أما الكيّ بالنسبة إلى آلام الروماتيزم المزمن، فله فائدة حقيقية ولا شك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عدد كبير من الأمراض المزمنة الأخرى. ولكن في حالات أخرى، فإنه لا يسعف كثيراً، كما مثلاً، عندما يُكوى الرسغ الأيسر لعلاج اليرقان. ومما يكثر استعماله كذلك الكمادات. ومنافعها الأكثر شيوعاً، في الجزيرة العربية، كما في بقية أنحاء

العالم، هي المساعدة في إنضاج المنطقة الملوثة وبالتالي تسهيل لفظ القيح خارجياً. وعلاوة على تلك الاستعمالات المحلية، هناك مراهم ودهون منوّعة تتمتع بسمعة واسعة. إنها تلقّب بأسماء محكمة متقنة مثل: (باب السلام) وهو مرهم رائج جداً في البحرين وفي المناطق الواقعة على الساحل الشرقي.

تعلم العرب من الغرب قيمة التلقيح ضد الجدري، وهم يؤمنون به إيماناً كبيراً. وهم أنفسهم طوّروا طريقة ذات فعاليّة ولو أنها غير متقنة، ضدَّ مرض (الجمرة) وهو يقتل بين الحين والآخر عدداً كبيراً من الخراف في الجزيرة العربية. عملية التلقيح هذه، كما وُصفتْ لي، هي كالتالي تقريباً: حينما يبدأ المرض بالقطيع، يُشرَّح أول خروف يموت وتعلّق رئتاه لتعفنا. إن عملية التعفن، يجب ألاّ تترك لمدة طويلة. وحالما تُشمّ رائحة التعفن حول الرئتين المعلقتين، تجلب الحيوانات واحداً بعد الآخر، وتخدش آذانها بعمق يكفي لسحب قطرة أو قطرتين من الدم. ثم بقطعة صغيرة من الرئة المتعفنة كثيرة العصارة، تُحك في خدش الأذن، وتكرر المعالجة مع كل حيوان في القطيع. وأخبرني البدو، أن القطيع الذي يُعالج بهذه الطريقة لا يموت منه إلاّ واحد أو اثنان، بينما لا ينجو إلاّ واحد أو اثنان في القطيع الذي لا يعالج بتلك الطريقة.

العمليات الجراحية في الجزيرة العربية، تستأثر بالاهتمام حتى أكثر من الطب. ومما يبعث على الدهشة، تلك الشجاعة التي تتمّ بها معالجة الأمراض عن طريق الجراحة. لقد تعلّم العرب، ربما لأغراض وقف النزف الدموي، أن يقوموا بالشقوق والتشريط بسكينة في درجة الحرارة الحمراء. أعرف أن عملية واحدة، فتح فيها خراج الكبد بنجاح

بتلك الطريقة، وعملية أخرى لعفل أو سرقوم كبير جداً، في الفخذ، وقد شقّ بتلك السكّينة شقاً عميقاً، اعتقاداً منهم بأنها خراج كبير. كادت تكلف هذه الغلطة حياة المريض لأن النزف الذي تبع ذلك كان شديداً، إلا أن العربي الشجاع كان قد أعدَّ نفسه لذلك، واستطاع أن يوقفه بالبطانيات والقطن والضمادات.

قطع اليد، من أشهر العمليات الجراحية في الجزيرة العربية، لأنه عقاب السارق. توضع جذمة اليد المقطوعة في زيت يغلي لإيقاف النزف، تماماً، كما كان يجري في بلدنا من عمليات. أما قلع الأسنان فيتم بواسطة كلاّب، وعملية كهذه قد تصبح عملياً في بعض الأحيان، إجراءً يدوم يوماً أو يومين، قبل قلع السنّ أخيراً.

للعرب أسلوب في الجراحة أكثر براعة، وأكثر فاعلية حقاً، ألا وهو معالجتهم للكسور. ومن الحالات الشائعة، كسور العظام الناجمة عن الإطلاق الناري.

يقع كثير من الجرحى ضحايا للنزيف الدموي على الفور، وأكثر من ذلك للتلوث بعد أيام قليلة. وهؤلاء الذين لا يموتون حالاً بإحدى تلك الحالتين: أي الطلق الناري أو النزيف، يُعالجون بفاعلية تبعث على الدهشة. فعدم معرفة العرب بعلم التشريح، وحتى عدم معرفتهم بالعظام، جعلهم لا يبذلون جهداً لجبر كسر، إلاّ أن الفرد المصاب، جامد بدرجة كافية لإجراء عملية. يُمدَّد المصاب على الرمل، وتُثبّت بعض الأوتاد الصغيرة بموازاة الطرف المكسور، الذي يربط بواسطة حبال. يُحفر تجويف أو حفرة تحت المصاب، حتى تكون فراشاً له، ثم تُنصب فوقه خيمة لوقايته من الشمس. يبقى المريض مقيداً بفراشه الرملي لمدة ثلاثة أشهر تقريباً. إن وضع شظايا العظم في بعض

الأحيـان يكون غير عادي تماماً، ولكن كنتيجة لهذه الطريقة، في تثبيت المريـض حتى لا يقـوم بحركة، يلتحـم العظـم. لم أرَ إلاّ حالة واحدة لم يلتحـم بها الكسر في القدم، خلال اثني عشر عاماً.

بالإضافـة إلى ذلـك، ثمـة عمليـات بارعـة ولكنها بصـورة أو بأخرى، شـنيعة، ومنها عملية البواسـير، وهي عمليـة شـائعة شـيوعاً كبيراً في الجزيرة العربية. يُعطى المريض في هذه العملية، مسهل شديد، وكنتيجة إلى شـدّه وعصره تنفجر البواسير. يُشدُّ بعد ذلك مرهم أكّال عـلى الكتلة المطروحة. لم أجد فرصة لاختبـار هذا المرهم، ولكن ليس لدّي شـك من أنه يحتوي على الزرنيخ. لهـذه المعالجة أثرٌ فعّال في إزالة البواسير، وليس هناك خطر تضيّق شرجي لاحق، على غير المتوقع. في الأقل، أنا لم أرَ مثل هذا التضيّق أبداً، والعملية شـائعة لدرجة ما. على أيـة حال، إن مجرى العملية موجع شـنيع. أعرف رجلاً خرج وجلس لساعات في البحر، في محاولة لتقليل الألم المريع.

لكـن عمليـة انحـراف الأهداب في الجزيـرة العربيـة، هي أبرع العمليـات بفارق كبير، وأكثرها نفعاً. انحراف الأهداب حالة شـائعة جداً، وتنجم عن عدم معالجة التراخوما، أو الرمد الحبيبي، الذي يملأ البلد برمته. فآفة مزمنة في الجانب الداخلي من الجفن، تؤدي إلى تقلّص في ذلك السـطح، وفي حين تلتوي الحافة السـفلى السـائبة إلى الداخل، ينجم عن ذلك أن الأهداب تخدش قرنية العين ذهاباً وإياباً.

إنهـا مجـرد وقـت قصـير قبـل أن تُفقـد عين كهـذه تمامـاً. هناك طريقتـان لمعالجة هـذه الحالة. الأولى وهي الأكثر شـيوعاً، الإبقاء على شـعر الأهداب مسـحوباً بعناية، حتـى تبقى الحافة التي تحـك القرنية ناعمـة. وإذا تـمّ ذلـك بعناية، فإن عينـاً كتلك، تصان إلى مـا لا نهاية.

الملاقط الصغيرة الدقيقة لهذا الغرض أشياء مألوفة في أسواق الجزيرة العربية، وهي جزء من تجهيزات التبرّج، حتى لبدو الصحراء.

لكن يمكن تصحيح حالة انحراف الأهداب، عن طريق عملية جراحية، وفيها يُجرى حزّ أو شق عبر جلد الجفن المصاب، من الحافة إلى الحافة. العينان، بالطبع، كلاهما، تتطلبان معالجة، بلا استثناء. هذا الحزّ سطحي ويمتدُ خلال الجلد، وأسفل غضروف الجفن فقط. لا حاجة للقيام بحزّ في الغضروف نفسه، بوضع خيط في كل نهاية للحزّ ويترك غير مربوط. وهكذا يتم العمل بدون مخدّر، لأن العرب لا يعرفون أيَّ شيء من هذا القبيل. وبغصين مدوّر، أو عوداً صغيراً بسمك قلم رصاص وبطول بوصة واحدة وبواسطة الخيوط التي أدخلت، يربط العود في المكان المناسب من الحزّ، وتترك قطعة الخشب أو الغصين في مكانها لمدة شهر ونصف، وخلال هذا الوقت، يتجمع قيح الجرح باستمرار. الشفاء، بالطبع غير ممكن. فالعود يترك في الجرح للغرض العاجل لإيقافه. وفي نهاية الأسابيع الستة تقريباً، تقطع الخيوط، ويُزال العود، ويلتئم الجرح بسرعة. إن مقدار الندب أو أثر الجرح في النسيج خارجياً يوازن الآن تقريباً مقدار الندب في نسيج السطح الداخلي للجفن، ويمنع تقلّصه التواء حافة الجفن.

إن طريقة فظّة كهذه قد تعطي نتائج سيئة تماماً، كما يمكن أن نتوقع منها، ولكنني في الواقع رأيت عدداً من العيون التي عولجت بهذه الطريقة وكانت النتائج ممتازة إلاّ في حالتين. ورأيت مرتين هذه المعالجة تنتهي وقد انسلخ في الغالب كل جلد الجفن الأعلى، مع انقلاب الجفن بصورة شنيعة، نتيجة لذلك أُلصقت الأهداب على الحاجب وسرعان ما فُقدت العين لأنها لم تكن قادرة على الإغماض.

إن الشجاعة والبراعة اللتين ظهرتا في تلك العمليات الجراحية، كان يمكن لهما أن تتطورا إلى شيء أكثر تقدماً، لو أنهما بُنيتا على معرفة دقيقة بعلم التشريح. غير أن علم التشريح كتاب مغلق بالنسبة إلى العرب. إن تشريح الجسم البشري كان سينظر إليه برعب، وهم لا يعرفون بالطبع أن التشريح الحيواني كان سيقدّم لهم كثيراً من المعلومات. تحت تلك الظروف، لم يكن هناك شيء ممكن ما عدا أكثر البدايات بدائية.

في بلد كهذا، فان العلاج والجراحة، لا بدّ أن يُقدرهما الناس تقديراً كبيراً. لأنهم بلا إسعاف، وحاجاتهم ملحّة، كما تكون عليه حاجاتنا لو كنّا تحت نفس الظروف. فالأمراض المستعصية متفشية. الكوليرا إذا دخلت قرية قد تقضي على ربع سكانها. الجدري كارثة متواصلة. الشحاذون العميان في كلّ مكان. وعلى طول الساحل قللّت الملاريا من فاعليّة وقوة السكان إلى جزء صغير كما يجب أن تكون عليه. وفي القطيف، أسوأ مركز للملاريا بجوارنا، وتصل نسبة حدوث طحال متضخم ناجم عن الملاريا إلى خمسين بالمائة.

المحاولة الوحيدة لسدّ هذه الحاجة الملحة، هي ما تقوم به الحكومة البريطانية، فقد عيّنت مساعد جرّاح في كل ميناء كبير على الخليج الفارسي، والمحاولة الثانية هي ما تقوم به الإرسالية الدينية العربية التي كانت تنوي تعيين طبيب مؤهل في كل مراكزها، وتزويده بمستشفى ليعمل فيها.

إن الجراحين المساعدين الحكوميين، مؤهلون بالتدريب للقيام بأعمال طبية بسيطة، وهم لم يجربوا الجراحة أبداً إلاّ نادراً. مع ذلك كانوا بركة على البلد. أما نشاطات المبشرين الأطباء، فقد وصلت

إلى مناطق أوسع ذلك أن المرضى كانوا يأتون من مناطق بعيدة جداً، لأخذ العلاج على أيديهم. وربما لهذا السبب أصبح عملهم ينصرف إلى الجراحة أكثر فأكثر. إن العدد الذي وصلته مثل هذه الإرسالية الطبية قد يكون كبيراً، لان الطبيب المبشّر لا تحدّد كمية عمله إلاّ طاقته على المواصلة. ففي العام الماضي أُجريت خمسمائة عملية جراحية كبرى فيما يتعلق بالعمل الطبي في البحرين، وقد أُجريت معظم تلك العمليات في المستشفى نفسها. وربما كان هناك نفس العدد من العمليات الصغيرة، وعولج أكثر من عشرة آلاف مريض خارجي.

هذه الأرقام على أية حال، لا تعني شيئاً تقريباً. فإذا جاء إلى المستشفى عشرة من الرجال والنساء الذين كانوا بحاجة إلى عناية طبية، فذلك يعني أنه يتطلب عشرة أطباء، بدلاً من واحد، للقيام بالعمل.

على الرغم من أن معدات تلك المستشفيات التبشيرية ضئيلة، إلاّ أنها قامت بعمل طيب، حتى إذا حكمنا عليها بأفضل مستويات الجراحة في بلدنا، وإذا قورنت بالمستويات المحلية، فأنها عجيبة فوق العادة في الغالب. وقد انتشرت سمعة هذه المستشفيات إلى القاصي والداني، فالبدو الذين يأتون إلى طبيب لم يروه مطلقاً، يظهرون الثقة بحكمته وبنواياه الطيبة. إن هذا شيء جدير بالملاحظة، ومن الطريف أنهم لا يخافون من العملية قيد أنملة ولديهم تشوّق لها إذا كانت هناك فرصة للفائدة. جاء أحد معلمي أبناء إبن سعود لإجراء عملية في معدته التي كانت مصابة بقرحة معدية طويلة العهد، ولم يكن رئيسه يعرف نيّته، ولكن حينما كان في طريقه ناحية الأحساء، حيث كان يقيم الطبيب، اكتشف أن المريض ما يزال في القافلة نفسها. فتساءل إبن

سعود باندهاش: (أوصلتْ إلى هذا الحدّ، بحيث أن بطون الرجال تُشقّ في الوقت الحاضر كما يُشقّ كيس، أو قطعة قماش قديمة؟).

الخدمة التي قدمتها الإرسالية التبشيرية الطبية، أكثر من خدمة شخصية، أنها خدمة مجتمعية. كنت في يوم ما في جولة امتدت بنا بعيداً إلى القسم الداخلي من عمان، فدخلنا قرية كانت تعاني من وباء كوليرا شديد.. كنّا ضيوفاً على الشيخ الحاكم، كما هو الحال مع السياح عادة.

ـ (أنت طبيب، أليس كذلك؟) سألني الشيخ.

ـ (نعم تقريباً. أحدهم) أجبت.

ـ (حسن، هل لك أن تخبرنا عن طريقة لإيقاف هذا الوباء. كثير من الناس يموتون كل يوم).

ـ (أستطيع أن أخبرك بسهولة كيف يمكن إيقاف هذا الوباء. ولكنني أشكّ في أنه سيكون خيراً، لأنك لن تفعل ما أقوله لك) قلت له.

ـ (نعم سنفعل ما تقول، جرّب وسترى) قال الشيخ الحاكم.

ـ (حسن، إغلِ كل الماء الذي تشربه، واطبخ كل الطعام الذي تأكله وتأكد من أن ذبابة بأقدامها القذرة لا تمشي فوق طعامك، قبل أكله، عندئذ لن تكون عندكم كوليرا بعد الآن).

لمرّة واحدة في حياتي صدّقني الناس. وسرى خبر من بيت الحاكم، أنه ما من ماءٍ يشرب بدون أن يغلى، وما من طعام يؤكل إلا بعد أن يُطبخ. الذباب يطرد من الطعام جميعه. توقف ذلك الوباء وكأنما قطع بفأس ولم يُبلَّغ عن حالة جديدة أخرى بعد ذلك اليوم.

البحريـن أيضاً ممتلئة بالملاريا. جاءني أحد المسـؤولين في المدينة قبل فترة ليست بالطويلة واستفسر عن إمكانية وضع زيت الكيروسين فوق المستنقعات، وفي البحرين عدد كبير منها، وبهذا يتم تقليل المرض. في قضايا كهذه تُسـنح للطبيب البشري فرصة مدهشة ليكون الرائد في الخدمـات الصحية العامة. إنـه يأمل أن يرى ذلك اليـوم، الذي يأخذ الشـيوخ الحكوميون عـلى عاتقهم هـذه المهمات، ويحملونهـا إلى نقطة أبعـد مـن أي شيء يمكن أن يقـوم به، ولكن حتى يـأتي ذلك الوقت، فالمسـاعدة في جعل مثل هذه المشـاريع تبدأ، هي إحدى أشـدّ رغباته. وهـو مهتم كذلك في إيجاد مجموعة من الكتابـات الطبية الأولى لهؤلاء النـاس المتأخرين. فقد وجـدت بعض النشرات البسـيطة عن الملاريا صدىً واسـعاً لـدى القرّاء بالبـصرة، وقد وُضِع برنامج لسلسـلة من النشرات المماثلة في البحرين عن أخطار السـلّ، والزهري، والسـيلان والملاريـا، وكيف تنتقـل وما علاجها. إن هذا النـوع من العمل يرهق المبشّر الطبي إلى أبعد حد، لأن قابلياته الأدبية ليست عالية دائماً، ووقته المتيسّر قليل، لكنه شيء يجب أن يقوم به.

في منطقـة كالجزيـرة العربيـة، هنـاك مشـاكل طبيـة، تدعـو إلى اسـتقصاء أسبابها. لدينا مثلاً، عدد كبير من الإصابات بمرض السلّ، ولا سيما في المجموعات البدوية. ومن المحتمل أن خمسة وسبعين بالمائة من الإصابات بالسـلّ رئوية بأمريـكا، بينما في الجزيرة العربية، أقل من خمسة وعشرين. ولكن ما سبب ذلك الاختلاف؟ إنه سؤال، من المهم التحقيـق فيه. قد يندفع المرء ويعزو إمكانية الإصابة بالسـلّ إلى تناول بكتيريا الباسـيل في حليب ناقة ملوث، وهو يشـكّل مادة طعام رئيسية للبدو في الصحارى. لم تسنح الفرصة لحد الآن، للتحقيق فيما إذا كانت

نوقهم مسلولة دائماً هناك، أم لا.

لا توجد في الجزيرة العربية، التهابات الزائدة الدودية. وإذا قلنا أن مرض الزائدة الدودية، هو مرض الحضارة فإنما نقرر ببساطة نفس الحقيقة بطريقة مغايرة. الذي نريد أن نعرفه هو: كيف ولماذا تسبب الحضارة المرض؟ لقد رأيت من خلال تجربتي في الجزيرة العربية، لمدة اثني عشر عاماً، حالتين فقط وكلتا الحالتين جاءتا من الخارج. من الصعوبة أن نتصور أن العادات الغذائية الأكثر صحة، لدى العرب، هي التي تدرأ عنهم هذا المرض. لأن عاداتهم الغذائية، سيئة بأسوء ما تكون عليه العادات. ومن الأمراض هناك أيضاً نوع من الاستسقاء مع كمية كبيرة من الانصباب الدميّ من البطن. والاستسقاء شائع إلى حدّ ما في الجزيرة العربية، وله صلة بالطحال المتضخم، وبقدر معين بالتليّف الكبدي.

يعزو الأطباء في الهند، هذا المرض إلى الملاريا المزمنة، وهو مرض شائع تماماً هناك كذلك، إلاّ أننا نجد في الجزيرة العربية إصابات كثيرة به، في قطاعات من البلاد، حيث الملاريا غير معروفة عملياً.

الحصى في المثانة مرض شائع في كل أنحاء الشرق، ولا تستثنى من ذلك الجزيرة العربية. ثمة منطقة في بلاد الرافدين، بين نهري دجلة والفرات، حيث المرض هذا شائع تماماً. سيل متواصل من إصابات كهذه يجد طريقه من هذه المنطقة إلى كل قرية. فحينما كانت (الإرسالية التبشيرية) تتعهد مستشفى لها بالبصرة، كانت تعالج هناك حوالي مائة إصابة، وكلها عملياً من تلك المنطقة. قبل عامين سنحت لي الفرصة لزيارة تلك المنطقة. لقد أظهر (مندل) من (نيوهيفن) قبل سنوات أن تشكّل الحصاة يمكن إحداثه في الفئران إذا غُذّيتْ بغذاء ناقص، وعلى

هذا سايرنا الفكرة بأن غذاء ناقصاً قد يكون السبب في عدد كبير من الإصابات. ولدى وصولنا كان سبب الحصاة المثانية في تلك المنطقة واضحاً جداً، ولم تكن له أية علاقة بالغذاء. إن المنطقة برمتها بؤرة لمرض البلهارسيا. ومع مساعدة حكومية صغيرة، سيكون من السهل القضاء على ذلك المرض. كنا محظوظين لأننا نمتلك دواءً فعالاً ممتازاً يتمثل بـ زجاجة كبيرة من (بوتاسيوم الاثمد) ويؤخذ عن طريق زرقه في الأوردة. من الواضح أن مرض البلهارسيا شائع في بلاد الرافدين، أكثر بكثير مما كنّا نتصور لحدّ الآن. وقد أوضح هذه الحقيقة الدكتور (بوري) الجراح المدني بالبصرة، بأن هذا المرض متفشٍ باطراد، وأن نسبة إصابة الصبيان به تصل إلى أعلى من خمسين بالمائة بكثير.

أعتقد أن مرض الزهري أكثر تفشياً، وأكثر انتشاراً في الجزيرة العربية، منه بأمريكا. ومردّ ذلك، إلى حدّ ما، إلى أننا بأمريكا، إذا ما وقعت إصابة واحدة، فإنها عادة ما تنحصر في نطاق ضيق في انتشاره المحتمل مما هي عليه الحالة في الجزيرة العربية، حيث تعدد الزوجات يتيح لإصابة واحدة، مجالاً غير محدود لانتشاره المحتمل. إن الجماعات البشرية هناك، تبدو وكأنها محصّنة ضد المرض، وأن الآفات الشديدة اللاحقة بما في ذلك، سلّ الظهر، والفالج، غير شائعة على الرغم من تفشّي علاماته الأولية والثانوية. أما فيما يتعلق بالسيلان، وهو شائع جداً، ومن العجب أن المنطقة المحيطة بالبحرين والكويت، حيث العلاج ينحصر في الإسراف في معاقرة الخمر، وفي العلاجات المختلفة التي تؤخذ عن طريق المعدة، أن مرض الإمساك غير معروف. بالمقارنة، فإنه شائع تماماً في عمان، حيث العلاج الموضعي، من كل الأنواع، قائم. هذه مجرد مشاكل طبية محلية قليلة، وهي تدعو إلى استقصاء أسبابها.

ومن أكثر المطامح العزيزة لدى الطبيب التبشيري، هو أنه قد يكون قادراً على استعمال المعلومات السريرية التي تمرّ بواسطته بخصوص أمراض كتلك، لزيادة المجموع الكلّي للمعرفة العلمية بإسهام صادق، وإن كان صغيرا.

يشتغل الطبيب في بلاد كالجزيرة العربية تحت عقبات لا جدال فيها. أوّلاً جهل الناس، والصعوبة الناجمة عنه في جعلهم يقدرون أهمية تطبيق التعليمات. جاء بدوي مرّة، إلى مستشفى أُقيمت على وجه السرعة، عندما كنا نعمل بالرياض، في إحدى رحلاتنا إلى هناك، وقد كان بحاجة إلى مرهم لعلاج موضعي. طلبنا منه أن يجلب فنجاناً صغيراً كحاوية للدواء، وأعطيناه تعليمات دقيقة. قال له الطبيب: (هذا الدواء للاستعمال على هذا المكان الملتهب، طيلة الأسبوع المقبل. عليك أولاً أن تغسل المكان الملتهب بعناية بماء ساخن، وبعد ذلك ضعْ جزءاً صغيراً من المرهم على قطعة قماش نظيفة ولفّها عليه. يجب أن تعاد هذه العملية كل يوم، مرّة واحدة في الأقل. والآن هل فهمت؟).

قال نعم، وذهب ليجلس في الزاوية، بينما استمرَّ عمل المستوصف وبعد عشر دقائق، أرجعه الطبيب بينما كان على وشك المغادرة. وسأله: (إلى أين أنت ذاهب، وما الذي كنت تعمله؟).

ـ (لقد وضعتُ الدواء على المكان المؤلم، تماماً كما أوصيتني أن أفعل).

أجابه الطبيب: (لا لم تكن تضع الدواء كما أوصيتك أن تفعل بالضبط، لأنني أرى أن الفنجان فارغ، وأن الدواء كان يجب أن يدوم لمدة أسبوع. ما الذي فعلته به؟).

أصَّر البدوي قائلاً: (كنت أضع الدواء، كما أوصيتني).

أجاب الطبيب: (والآن انتبهْ لي، ما الفائدة من إخباري بذلك، ألم أقلْ لك إن الدواء تستعمله لمدة أسبوع؟).

ـ (نعم، أعرف أنك قلت ذلك. لكن عليّ الآن أن أضعه كلّه، لأني ذاهب إلى البيت لأشرب القهوة، وهذا هو الفنجان الوحيد الذي امتلكه).

وهكذا رفع الطبيب يديه إلى السماء وقال مستسلماً: (لا تنس أن تأتي غداً، لأعالجك مرّة ثانية).

وجاء إعرابي ليرانا في اليوم الأخير من إحدى زياراتنا إلى إحدى المدن في عمان. جلب معه ابنه، وكان عمره قرابة العشرين، وكان يعاني من نوبة حادة من الملاريا. كنّا نعالج الملاريا في تلك الأيام بإعطاء ثلاث جرعات من الكنين بعشر حبات في كل جرعة، وثلاث مرات في اليوم. تسلّم المريض ثمانين حبة كنين، حتى تدوم إلى اليوم الثالث وزيادة، حيث عليه مراجعتنا بعد ذلك، لإعطائه نصيحة أخرى. بيد أنني عصر ذلك، وبينما كنت على ظهر بعيري متهيئاً للذهاب إلى مدينة أخرى، جاء والد الصبي ليراني مرّة ثانية.

ـ (جئتُ هذا الصباح للحصول على دواء لأبني).

قلت له: (نعم، أتذكرك. كان ذلك من أجل الحمّى. هل أعطيته جرعة من الدواء، كما أخبرتك؟).

أجاب الأب: (حاولتُ أن أجعله يأخذها، لكنه قال إن الحبوب مُرّة).

قلت له: (أعرف أنها مُرّة، لكن يجب عليه أن يأخذها. إنه مريض، وما من شيء آخر سيشفيه).

استمر الأب قائلاً: (أخبرته بذلك، ولكنه قال أنها مُرّة لدرجة لا يمكنه معها أن يتجرعها).

ـ (بالطبع إنّها مُرّة. إسمها دواء وليس حلوى «مثل عربي». يجب أن تغصبه على بلعها).

أجاب الرجل بصبر: (نعم، هذا ما حاولت أن أفعله، لكنه قال إنه يفضل أن يموت على أن يأخذها، وبعدئذ صرت غاضباً وحتى أريه ما الذي يجب أن يفعله، بلعتها أنا).

قلت: (ماذا قلت، بلعتها؟).

قال الرجل ببساطة شديدة: (نعم، بلعتها).

قلتُ: (هل بلعتها كلَّها؟).

ـ (نعم، كلّها والآن رأسي يدور هكذا). وحركّ يديه موضحاً كيف يكون دوران رأسه.

ـ (منذ متى شربتها؟).

ـ (آه، ربما قبل أربع أو خمس ساعات).

لذا أرسلته إلى بيته ليصحو من مفعولها، وكنت سعيداً أن الضرر الوحيد كان ضياع ثمانين حبة كنين.

من جهة ثانية، يجب التخلّص من الأدوية المنشطة التي تحتوي على الزرنيخ بحذر شديد. لكنَّ الفكرة السائدة، هي أنه لو كان الدواء القليل مفيداً، إذن بالطبع فالكثير أفضل. وهذه الفكرة منتشرة ولا

تقتصر على سكان الجزيرة العربية.

العائق الثاني لما يمكن أن نقدمه من خدمة ممتازة، ناجم عن البيئة السيئة. وحتى في المستشفى في البحرين، فان معدّاتنا أبعد ما تكون عن الكمال. إذ لم تكن هناك أرضية إسمنتية فيها إلاّ مؤخراً. وكان يجب أن نقوم بخدماتنا المتنقلة ببيئة بدائية أكثر. قمنا مرّة برحلة إلى الأحساء، واستهلكنا تقريباً كلَّ ما لدينا من محلول (فاولر) لقتل الذباب. كانت هناك حشود منه في كل مكان، وعند الصباح، كُنست الحشرات الميتة بكميات كبيرة، وعلى الرغم من وجود بئر في البيت، فقد كانت ملوّثة بالذباب لدرجة توقفنا معها من استعمال مائها.

لم أقض في حياتي ليلة أصعب من تلك الليلة في القطيف، وأنا أُجري عملية على شخص يعاني من فتق مختنق، وكان قد جيء به في الثامنة والنصف مساءً. قمتُ بإجراء العملية بدون تأخير. لم يتيسر لي مساعد يعرف كيف يعطي المخدِّر، لذا أعطيت المريض تخديراً قوياً للحبل الشوكي. وكان الضوء الوحيد، فانوساً بفتيلة سمكها نصف بوصة، وقوته بقوة شمعة تقريباً. ولم تكن لدينا إلا عدّة صغيرة من الأدوات، ولم تكن هناك أيّة إمكانية لتغييرها أثناء العملية. مع ذلك توفّقنا في قطع تسع بوصات من المعي المصاب بالغنغرينا ولحمناه، وأغلقنا الجرح في البطن، وبأعجوبة نجا المريض واستعاد صحته.

حتى مسألة تنظيف الجلد تنظيفاً لائقاً تحضيراً للعملية سببت لنا كثيراً من المتاعب، لأن الجلود التي كنا نتعامل معها قذرة إلى أبعد حد، ولجعلها نظيفة بما يكفي لإجراء عملية معقّمة لم يكن شيئاً سهلاً. حين بدأ العمل شكّلت صفات مساعدينا في المستشفى عائقاً خطيراً، إلاّ ان التدريب كان عاملاً مساعداً في التغلب على كثير من الصعوبات. أما

المشكلة الأكثر سوءً فكانت مسألة طعام المريض. فلم يكن بمقدورنا إلاّ إطعام عدد صغير من المرضى الذين يأتون إلى المستشفى، والطعام الوحيد الذي يتمكن كثير منهم من شرائه لم يكن ملائماً البتة.

وهناك صعوبة خطيرة أخرى، هي أن الرجال لا يشتغلون من أجل النساء، ولا النساء من أجل الرجال في الجزيرة العربية. وعلى الرغم من سهولة تقديم خدمة جيدة في جناح النساء، وذلك بجلب ممرضات مدرّبات من الهند، إلاّ أن المشكلة أكثر صعوبة في جناح الرجال. إذ من المفروض أن يجلب كل مريض معه ممرضه الخاص، إلاّ أن كثيراً منهم يجلبون عدداً من الممرضين.. وهؤلاء هم من الأصدقاء، والأخوان والآباء الذين يحتشدون في الجناح، وهم ينامون معظم ساعات اليوم على الأرض إلى جانب سرير المريض، الذي يعتنون به. وبقدر ما يتعلق الأمر بالعناية غير الماهرة، وغير المدربة، فانهم يقدمون له أفضل عناية يمكن تصوّرها. إن هذا النظام، على الرغم مما فيه من مشاكل، أي نظام جلب الممرضين الخاصين من قبل المرضى أنفسهم، سار سيراً حسناً جداً. لأن المرضى يشعرون براحة مع ذويهم ولا يشعرون بالوحدة مطلقاً. حتى في أمريكا فان عدداً كبيراً من المرضى في المستشفيات يمكن أن يعتني بهم بصورة جيدة أفراد عوائلهم، إذا ما نُظّمت المستشفيات، في حالة قيامها بخطة مماثلة ممكنة.

أتذكّر مثالاً لهذا النظام في عمله السلس، يوم جاء إيراني إلى المستشفى في البحرين وهو يعاني من التهاب شديد في الكلية يرافقه إبنه الذي لم يكن يتجاوز عمره عشر سنوات، للعناية به، ولم أكن أتوقع أن أرى أبداً وفاءً أروع من هذا الوفاء العائلي. جئتُ إلى المستشفى في الساعة الثانية صباحاً، للقيام بعمل طارئ، فإذا بي أجد ذلك الرجل

المريض يتقلب في سريره، وإلى جانبه يجلس إبنه منتصباً بعد نوم عميق، ليسأل إن كان هناك أي شيء يمكن أن يقوم به من خدمة لإراحة والده. كان هذا الولد الصغير ممرّضاً نموذجياً. كان يسهر على تنظيف والده، ويجلب له الطعام، ويفرّج عنه حينما يكون مكتئباً. وعلى الرغم من كلّ ما عملناه من أجله، إلاّ أن صحة الرجل لم تتحسن وبعد شهر تقريباً توفي. ذهب الصبي الصغير، عبر المدينة الغريبة ليلاً لجلب الأقرباء، حتى لا يتأخر موعد الدفن. راقب التحضيرات للدفن، وسار مع الجنازة إلى القبر، وبعد أن انتهى كل شيء، فتّش عن الطبيب حتى يبكي في حضنه.

العوائق الأخرى، التي كان المبشّر الطبيب يعمل تحت ظروفها، تختلف في خصوصيتها عن تلك العوائق التي سردناها أعلاه. إن مهنة الطبيب في الجزيرة العربية، كبيرة جداً، ومن الصعوبة أن لا يقع الطبيب، إذا اضطر للعمل ضعف ساعات العمل، ضحيةّ عدم الدقّة والأهمال، وأن يضحّي بِمُثُلِ العمل الكامل. وما دام التشريح البشري غير جائز، فان الطبيب محروم من التعلّم من أخطائه.

وعلى هذا فإنّ أكثر العوائق جسامة وخطورة، هي أن الطبيب يعمل في معظم الأحيان لوحده دون نقد نافع من زملائه، ودون سنوح فرصة لديه لمقارنة عمله بعمل الآخرين. علاوة على ذلك، فان الطبيب التبشيري لا يستطيع أن يحدّد نفسه بحقل معين من حقول الطب، لذا عليه أن يقوم بكل شيء، وعلى الرغم من أن ضرورة كهذه تسعف عدداً أكبر، إلاّ أنها تجعل مهمته أصعب بكثير. وأفضل سبيل مفتوح أمامه هو التخصّص في أحد حقول الطب، والقيام بالمهمات الأخرى على أفضل ما يستطيع.

مهما كانت خطورة تلك العوائق، إلاّ أنها ليست مهلكة، فعلى الرغم منها جميعاً، فانه من الممكن القيام بالعمل الجدير بالاحترام. لقد ذكرنا أن تشريح الجثث غير ممكن إلاّ أن العمليات الجراحية تزوّدنا بكمية كبيرة من المعلومات عن الأمراض لدراستها دراسة دقيقة. لقد وجد معظم الأطباء المبشّرين، بأن الجراحة هي نشاطهم الرئيسي، وتدريجياً اختصوا بها. طوّر كثير منهم دقّة في التكنيك، ونضجاً في المَلَكَة الجراحية التي ستكون موضع فخر للمستشفيات الجراحية بأمريكا. هذا شيء لا يمكن الشكّ به، ولكن من الصعوبة اللحاق بالتطورات الطبية في بلاد مثل الجزيرة العربية، منه في بلادنا أمريكا، ولكن بالكتب وبالمجلات الطبية يمكن عمل ذلك. وهناك حتى بعض الحسنات لوضع كهذا.

فالطبيب في الجزيرة العربية لا يمكنه طلب رقم ٦٦٢١ ويسأل الدكتور سميث للمجيء وأخذ ست وعشرين صورة أشعة (أكس) للتأكد من تشخيص مرض غامض في المعدة والأمعاء. كما لا يمكن له أن يطلب رقم ٢٢٨٣، ويسأل الدكتور براون حتى يأتي ويجري اختبار وازرمان (اختبار لتشخيص الإصابة بالسفلس)، أو يستدعي الدكتور (وايت) ليعطي حكمه في سكر الدم. إنه يعمل بنفسه كل ما يقوم به المختبر، وهذا يعني أن الاختبارات الدقيقة لا تُجرى، ولكن مما يبعث على الدهشة هو النتائج الطيبة التي يمكن ضمانها عن طريق استعمال الحواس الخمس، إذا ما أُضيف قليل من الموهبة الطبيعية غير الشائعة تماماً لحاسة الإدراك.

بالطبع ثمة أمور تفوت الطبيب. مثلاً، جاءت فتاة عمرها ست عشرة سنة إلى المستوصف في البحرين وهي تعاني من سوء

هضم شديد، وروت تاريخاً نموذجياً عن قرحة ناشئة عن العصارات الهضمية. كانت تعاني من ألم معوي شديد، وقد خفّ مؤقتاً بتناول طعام بسيط، وقد تقيّأت قيئاً كبيراً، ومع محتويات المعدة ظهرت مراراً كميات معتدلة من الدم. كان ألمها غير اعتيادي، وتنام أحياناً طيلة الليل، وركبتاها تنحنيان إلى وجهها بسبب حدّة الألم ذاك. ولكن الميزة الجديرة بالملاحظة في مرضها، هي وجود تورّم كبير ملأ تقريباً كل المنطقة الشرسوفية (ذلك الجزء من البطن الواقع فوق المعدة). كان التورّم صلباً بصلابة مرض خبيث، ويمكن تحريكه قليلاً، وهو طريّ باعتدال وليس شديداً. لقد أصرّ والدها وكذلك الفتاة نفسها على أن الورم من علامات المرض، كان موجوداً معها منذ عشر سنوات، وهذا مما يرجع المرض إلى يوم كان عمرها ست سنوات. كانت نتائج الاختبار سلبية، ما عدا تلك النتائج التي ذُكرت أعلاه. كانت الفتاة تعاني من فقر دم ثانوي بدرجة معتدلة، لكن ليس أكثر من المتوقع. لقد عجز تأملي الطويل عن أن يكشف عن أية صورة لمرض في عقلي الباطن، يتطابق مع مرض الفتاة، ولكن حين تمّ فتح بطنها وأزيلت من معدتها كرة شعر متحجّر انحلّ اللغز. لقد استعادت عافيتها بلا صعوبة. وأخبرنا متحف الأمراض في (ييل) بأنها أكبر كرة شعر لم يروا مثلها أبداً.

قد نحصل على بعض النتائج الطبية المرضية في تقنية العمليات الجراحية، بالعمل الجاد الكاد، والتفكير الواقعي الحقيقي ليس فقط في تشخيص المرض ولكن في التقنية الجراحية كذلك. حينما ابتدأ العمل مع الموظفين الحاليين في البحرين، فان حوالي ثلث حالات عمليات الفتق طوّرت نوعاً من التلّوث. كانت العمليات على الفتوق، تُجرى

بتخدير موضعي، أما الخيوط فمصنوعة من الحرير. وبعد خمس سنوات من العمل المتواصل لحل هذه المشكلة، ظهرت نتيجة مختلفة كل الاختلاف الآن. لقد قمنا بالعمليات على ست وسبعين حالة متعاقبة، وما من تلوث من أي نوع مهما كان صغيراً. يمكن تطبيق تقنية التعقيم في الجزيرة العربية، وكذلك في (بالتيمور)، إذا كان مَنْ يقوم بالعملية مصمماً على ذلك. كان مساعدي في غرفة العمليات، قد عقّم كل أدوات العمليات لمدة أربع سنوات بدون زلّة أو هفوة. قمنا بهذا العمل بواسطة معقّم (ارنولد) البخاري، ونحن نعتقد أن البيانات التي دوّنت عنه، حسنة للغاية. وعلى الرغم من أن معظم المساعدين في المستشفى، لا يقرؤون ولا يكتبون إلا أنهم تدربوا تدريجياً، فأصبحوا أكفاء. أما المسؤول عن تخدير المرضى في البحرين، فيمكن مقارنته مع أيَّ طبيب مخدّر محترف بأمريكا، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يقرأ إلاّ الأرقام، وكان يشتغل قبل خمس سنوات سقّاء.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالسمعة، فلعلي أُغامر فأقول: ما من طبيب في نيويورك أبداً تمتع بمثل سمعة الطبيب المبشّر. لقد قمت بزيارة إلى الرياض في أحد الأيام، وكان أول مريض يُرسل إلى طبيب وصل منذ فترة ليست طويلة، هو أحد أصدقاء رئيس المدينة وهو رجل مشهور، ويعاني من مرض السلّ. كان يعرف أن حالته خطيرة، وبعد إجراء اختبار دقيق عليه قال متسائلاً ما هي مدة بقائي حياً، كما تظنّ. كان ذلك الرجل في المراحل الأخيرة من المرض، ومن الواضح أن أجله قصير. لم أتمكن من إعطائه أيَّ جواب، إلا أني تكهنت له، على أسوأ ما يكون عليه التكهن، ومات بعد أسبوع.

وبعد يومين أو ثلاثة من وفاته، سمعتُ أنهم يتحدثون عنّي

في إحـدى غرف الاسـتقبال، حيث كنت في زيـارة: (هذا الرجل) قال أحدهم لصديقه: (طبيب مشهور بالتأكيد، لقد وصل إلى الرياض قبل عـشرة أيـام، كما تعرف، وأرسـل عبـد الله في طلبه حـالاً. وبمجرد أن دخل الطبيب إلى بيت عبد الله، أشـار إليه بإصبعه: «إنك سـتموت في غضـون أسـبوع بالضبط»، هكذا قـال له. والآن فإن عبد الله لم يشـعر بتوعك صحته بصورة خاصة في الأسبوع التالي، بالعكس لقد شعر أن صحته بصورة ما، أفضل. ولكن بعد أسـبوع بالضبط من ذلك اليوم، تمدّد على الأرض ومات).

جاءت إلينا امرأة من البحرين وهي تعاني من كيس أو حويصلة في المبيـض. كانـت ضخمة تزن حوالي سـتين أو سـبعين رطلاً. لم يكن لدينـا ميـزان متيسّر، وواسـع بـما يكفي لوزنهـا. وحينـما وُضعت على الطاولة، جاء والد المرأة وطلبها: (يجب أن تعطيني إياها أريدها).

قلت له (لا. أنت لا تريد تلك، نحن لا نعطي أشـياء كهذه. لن يكون لك فيها نفع).

أصرّ الرجل قائلاً: (نعم، يجب أن تعطيها لي لأنني بحاجة إليها. فهذه المرأة التي أجريت عليها العملية هي ابنتي، وبسـبب هذا المرض فقدت سـمعتها. لأن زوجهـا الذي عاد قبل ثلاث سـنوات بعد غيبة طويلـة ووجد انتفـاخ بطنها، طلّقها بدون أي استفسـار. والآن، فمن الواضـح أن مرضها لم ينجم عن خيانة زوجية من جانبها، لذا أريد أن آخذها إلى القاضي، وتبرئة سمعة ابنتي).

قلـت: (لا بأس إذا كانت تقدّم أي شيء حسـن لأي شـخص، فخذهـا على الرحب والسـعة. وهكـذا جلبوا قطعة كبـيرة من قماش، ووضعـوا كيس المبيض فيها وشـدّوا زوايا قطعة القماش، وعلّقوه على

عمود طويل، وحمله رجلان في الشارع وهما في طريقهما إلى بيت القاضي الذي نظر إليه بدهشة كبيرة وقال: (ما شاء الله) وكان ذلك تعليقه الأول. حُمِلت الحويصلة هنا، وهناك، وعُرضت على كل بيت شهير في المدينة، وكانت حديث المكان. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام انفجرت الحويصلة، لأن جدرانها رقيقة، وكانت تلك نهاية الفصل الأول.

لكن هناك فصل آخر في قصة الحويصلة بالمبيض.. فبعد ستة أشهر كنتُ في القطيف في إحدى زياراتي، وجاء رجل إلى غرفة الاستقبال وسأل مضيّفي: (هل تعرف من هذا الرجل؟).

أجابه: (حسن، أعرف إنه قال لي أنه طبيب من البحرين).

ـ (هو بالضبط ما تقول. هل تعرف ماذا فعل؟).

ـ (لا، ما الذي فعله؟).

ـ (ما الذي فعله؟! هذا هو الرجل الذي أجرى العملية على بديعة. لقد أخرج كيساً كبيراً من بطنها. أخذوه إلى القاضي وداروا به على كل البيوت المشهورة في البحرين وعرضوه في كل مكان، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام، قرروا أنهم يودّون أن يعرفوا ما بداخله، لذا فتحوا الكيس، فقفزت منه دجاجة حيّة)!

سمع أحد الأطباء المبشرين الوصف التالي لإحدى العمليات التي أُجريتْ في المستشفى. قال الراوي: (ما الذي تظن أنني رأيت هذا الصباح؟ كنتُ في غرفة العمليات في المستشفى الأمريكي، ودخل رجل. أصغى الطبيب لصدره، بتلك الآلة الصغيرة المضحكة التي كانت موضوعة في أُذنه). ثم قال على الفور: (نعم ثمة شيء غلط في قلبك. يجب أن نجري عملية عليك. وهكذا وُضِع الرجل على طاولة

العمليـات، وقـام الطبيب بصنع شـق كبـير في صدره وأخـرج القلب ليفحصـه، وقال: «كـما اعتقدت يوجد بعض الوسـخ هنـاك» وهكذا فتحـه وغسـل عنه الوسـخ بعنايـة، وحينما نُظّـف القلب تنظيفـاً تاماً، خيّطه مرة ثانية بعناية شـديدة، وأرجعه إلى مكانه داخل الصدر. وبعد ذلـك أغلـق الصدر ببراعة وقال: «الآن أنت عـلى ما يرام. قم وأذهب إلى البيت».. وهكذا قام وذهب إلى البيت)!

المحتويات